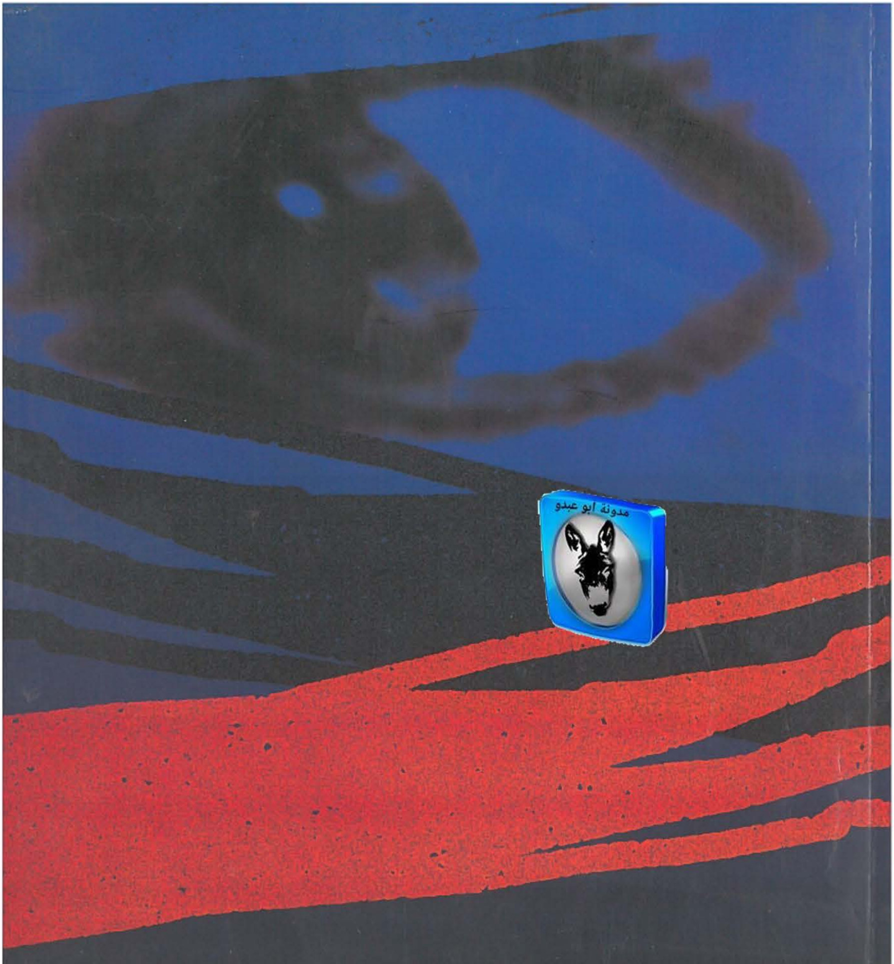


عدة أسباب للقسوة

عبد الحميد البسيونى

إضافة

عبد الحميد البسيوني

عدة أسباب للقسوة

قصص

طبعة أولى ٢٠٠٩

عنوان الكتاب:
اسم المؤلف :
الناشر : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات
قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ - المقطم - القاهرة
ت، ف : ٢٥٠٧٥٩١٧
e.mail : mahrosa@ hotmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
الغلاف والإشراف الفنى للفنان : مجاهد العزب
المحرر العام : محمود الوردانى

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٣٦٥١
الترقيم الدولى : x-٢٩٦-٣١٣-٩٧٧

" لأني روائي فأنا أعتبر نفسي أفضل من القديس والعالم والفيلسوف و الشاعر ، فالرواية هي الكتاب الوحيد الرائع في الحياة "

D.H.Lorans

حول التعاون
بين الجماعات المستقلة والمحروسة

تشهد حياتنا الثقافية منذ سنوات قليلة جداً عودة ظاهرة الجماعات الأدبية المستقلة ، وهى الظاهرة التى غابت طويلاً ، وربما كانت أخرها الجماعة التى أطلق أصحابها عليها اسم " الجراد " نسبة إلى المجلة التى أصدروها من خلالها عدداً أو عددين على الأكثر .

والحقيقة أن جانباً لا يستهان به من حالة الركود السائدة فى حياتنا الثقافية تعود إلى غياب هذه الجماعات . فعلى الرغم من تنوع وثراء الإنتاج الأدبى ، إلا أننا نعانى من ركود ثقيل لن تنتشلنا منه إلا إتاحة الفرصة كاملة لهذه الجماعات بشرط الحفاظ على استقلاليتها من ناحية ، وتنوعها من ناحية أخرى .

ونظرة سريعة وموجزة جداً لتاريخنا الأدبى القريب ، تكشف لنا عن أن تلك الجماعات لعبت دوراً بالغ التأثير منذ الأربعينات مثلاً . فالشباب الذين التفوا حول جماعتى "الخبز والحرية" و "الفن والحرية" شكلوا تيارات هامة سرعان ما طرحت ما يكاد يشكل انقلاباً على الكتابة السائدة . كما أن

الجماعات التى خرجت إلى الوجود فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ التى شكلت جيل الستينات بكل ملامحه وسماته . ولعبت دوراً قريباً من هذا "جمعية كتاب الغد " ثم جماعتى "إضاءة" و "أصوات" .

وفى الوقت الذى اندلعت فيه ثورة "الماستر" بكل مجلاتها ومطبوعاتها ، خلال العقد الممتد من منتصف السبعينات وحتى منتصف الثمانينات ، لم تستطع مجلات الدولة ومطبوعاتها أن تؤثر فى الحياة الثقافية والأدبية بكل إمكانياتها ، وكان التأثير الأعظم والأعمق هو تأثير مجلات ومطبوعات الماستر ، التى كانت فى حد ذاتها أحد أهم تجليات الثورة المشار إليها .

والحال ان الجماعات الأدبية شكلت على الدوام الرحم القادر على إنجاب التيارات الأدبية الجديدة والتفاعل والحوار الخلاق بينها وبين غيرها من الجماعات .

واللافت للنظر أن الجماعات الأدبية الجديدة مثل " اضافة " و"آدم" و "الكل" و "اطلالة" وغيرها ، لا يقتصر وجودها على القاهرة وحدها ، فجماعة "إضافة" ولدت فى المنصورة ، وجماعة "الكل" ولدت فى الإسكندرية ، وهنا الاجتماعات عديدة فى جنوب مصر . أى أن الجماعات الأدبية ظاهرة حقيقية عميقة تعبر عن احتياج حقيقى لدى المبدعين ، كما تعبر فى الوقت نفسه عن عجز الأجهزة والمؤسسات القائمة فعلاً عن استيعاب الإبداع الجديد .

ولما كانت دراسة المحروسة تعتبر أن دورها ليس مجرد النشر ، بل اختيار ما ينشر ، واستشراف المستقبل والانحياز للاتجاهات الطليعية الجديدة ، بادرت بالحوار مع هذه الجماعات من أجل التعاون المشترك غير المشروط ، والذى يعد النشر أحد أشكاله فقط ، وهناك مساحة واسعة من أشكال التعاون المثمر الذى نأمل أن يتسع فى المستقبل .

انطلقت المحروسة فى حوارها مع الجماعات الأدبية الجديدة من يقينها المطلق بأن التنوع فضيلة يجب الحرص عليها ، وأن تلك الجماعات ليست نسخاً متشابها ، فلكل منها توجهاتها ومنطلقاتها الفكرية وانحيازاتها الفنية . وبوضوح أكثر فأن المحروسة ليست حريصة على الحوار مع كل الجماعات الأدبية فقط ، بل حريصة أيضاً على عدم التدخل فى توجهات ومنطلقات الجماعات المختلفة ، وحريصة على دعم هذا التنوع وتعتبره ـ مرة أخرى ـ فضيلة ، شأنه شأن الاستقلال لكل جماعة .

غنى عن الذكر أن الجماعات الأدبية الجديدة نشأت تعبيراً عن / واستجابة للواقع الأدبى والفنى ، غير أن الأهم أنها نشأت مستقلة عن الأجهزة والمؤسسات الرسمية ، وهى الفضيلة الأخرى التى تحرص المحروسة على دعمها ، فتلك الأجهزة والمؤسسات عاجزة إلى هذا الحد أو ذلك عن الوفاء بما يحتاج إليه المبدعون ، سواء بسبب السقف المحدود جداً لتلك المؤسسات ووجودها تحت السيطرة المباشرة للتوجهات الرسمية ، أو بسبب تطلع المبدعين لمساحة أوسع من حرية التعبير . هذا فضلاً عن أن دور هذه المؤسسات والأجهزة الرسمية فى تصورنا يجب أن يقتصر على تقديم أشكال من الدعم غير المشروط ودون أى تدخل من أى نوع .

ولا تعتقد المحروسة أن هناك خلافات فكرية أو فنية تحول دونها ودون التعاون غير المشروط مع الجماعات الأدبية . صحيح أن هناك خلافات وسوف تنشأ فى المستقبل خلافات أخرى ، لكن هذه الخلافات تعبير صحى عن التنوع الذى يتيح الفرصة وازدهار الإنتاج الأدبى الجديد ولا تحول دون المحروسة التعاون الكامل مع الجماعات المختلفة .

وأخيراً فإننا ننتهز هذه الفرصة لتوجيه الدعوة لكل الجماعات الأدبية لتشارك معنا فى تعاون مشترك غير مشروط ، وفى هذا السياق فإن المحروسة تأمل أن تكون ساحة حوار بين الجماعات الأدبية ، ليس بهدف توحيد تلك الجماعات مثلاً لأننا على يقين من جدوى وأثر التنوع ، وإنما بهدف توفير الفرصة للحوار الجاد ، وربما تتمخض عن هذا الحوار مجلة لكل الاتجاهات والتيارات ، أو نشر مشترك ، فالحوار عليه أن يقود الجميع نحو توفير مناخ صحى لهذه الجماعات ، وهو أحد أهداف المحروسة .

وفى النهاية نكرر الدعوة لكل الجمعيات الأدبية للمشاركة فى المستقبل القريب .

محمود الوردانى

عدة أسباب للقسوة

الجزء الأول .

حكاية العضلة القابضة .

متتالية .

(١)

ها هي البنت الجميلة إذن ، جاءت فانتعشت الأشياء من حولي ، تفجرت الحياة في نسغ الشجيرات الجافة المحيطة ، وازدهرت الحدائق ، جاءت فجلست إلى جواري ، كنت أسند ظهري إلى جذع شجرة عجوز وكانت هي تلبس الجينز والبلوزة المنقرشة بالورود والتماسيح الصغيرة ، جلست . استراحت وقالت لي : نهار جميل فقلت لها هاهو زادك وزوادك : ضرورة الفن لفيشر ، رائحة اللحظات لبهيجة حسين ، وديوان فقه اللذة لحلمي سالم ، وهذا عدد من مجلة به قصة لي . فحلت شعرها على الفور وقالت : قصة لك.. أنت كاتب فاجر . لكن خلاياها قد تفتحت الآن حيث أن شعرها الأسود الطويل قد تكاثر فجأة وبدا كأنه شجرة صفصاف فوق المكان ، واستطال جسدها الممشوق الجميل مثل شجرة جميز ضخمة وهي التي كانت قد قالت لي : أكره المرأة التي لا تحافظ على جمال جسدها .. أنا دلوقتي بعمل ريجيم قاسي .. أنا دلوقتي بقرا كتير خالص .. وبكتب قصايد كتيرة .

هي الآن بدأت تتكلم وسيصمت الكون ليستمع معي ، ربما يزعق أحد النوارس من بعيد لكنه سرعان ما سيكف ، إلا أن السفن التي تعبر أمامنا في طريقها إلى السويس أو بور سعيد سوف تكف بالتأكيد وهي تقول : مثلا ، مثلا يعني أنا دلوقت نفسي أقلع هدومي أنط في المية .. أو أقلع هدومي وأنط في

حضنك.. نفسي أقرا كل الشعر إلّي في العالم كله مرة واحـــدة.. كنت أتطلع إلى ذؤابات الأشجار الكثيفة مـــن حـــولي فأراهـــا ترتعش ، تنتفض من ذبذبات صوتها الموغل في رقته وتـــزداد اخضرارا وازدهـــارا ، وفي هذه اللحظة بالذات كان لابـــد أن أقرر : سوف أسحب هذه البنت الجميلة من يدها ونلف ونـــدور في أرجاء المدينة .. بيوت منشية الشهداء (عرايشية العبيد) .. بيوت حي السلام ، (الحكر) بيتا بيتا وحارة حارة ، حتى تمس بكفها الصغيرة الجميلة البيوت والناس ، فتنفجر الحياة والخضرة في قلب الموت المزمن . كنت أقرر وأنا أهتف: كل الوقت لهذه البنت الجميلة.

(٢)

:عيناك جميلتان هذا النهار. هكذا قالت البنت الجميلة وهـــي تنظر مباشرة داخل عيني.

كان ذلك مؤثرا جدا ثم أنها أكملت: مثـــل عيـــون القطـــط.

وراحت ترسم فوق جزء من ورقة أمامها حرف T وهي تؤكد أن عينيّ تشبهان عينيّ قط وقالت: إني أرى نفسي فيهما.

كانت قد جاءت في ميعادها بالضبط فوقفت أنا وهتفـــت بـــأنني أحب جدا المرأة التي تحترم مواعيدها فقالت موافقـــة ولكنني لســـت امرأة بعد، ثم أردفت وهي تجلس مرهقة.. ولكـــن مـــا الفرق ؟ كنت قد تناولت منها الكتب والحقيبة وتعبها وشـــكواها المرة من معاملة الأسرة لها و بأن العالم أصبح فظيعا لا يطاق، وقرارها بأنها لابد أن تدرس في أكاديمية الفنون أو تشتغل حتى تتخلص من قيود البيت وسخف الأب الذي لا يمكن أن يفهمهـــا، وبأن بداخلها بركان لابد أنه سوف ينفجر وأنها تحبني بـــالرغم من كل شيء، وأنها لن تتزوج أبـــدا حتـــى لا يســـتحوذ علـــى مشروعها رجل تافه، وقالت بقرف: سوف يعبث بجســـدي دون جدوى، هذا التافه. سوف أطبخ وأمسح وأنجـــب لـــه أطفـــالا يحملون اسمه وهو سوف يعبث بجسدي.

كنت قد طلبت لها حاجة ساقعة مثلما رغبت وطلبت لي زجاجة بيرة لكنها احتجت: هل تشرب على الصبح ؟أنا لا أحبك . هل تعرف لقد تخيلتك أمس وأنا في المطبخ . لك جسد جميل لا بد قد جردتك من هدومك تماما وأخذت أتأملك.
أنت تعرف أنا أحب الجسد المستوي جسد. أكره أي قطعة لحم زيادة في أي جسد.. وعلى فكرة جسدي أنا جميل جدا وأنا عارية. أجمل ما فيه أنه لم يظهر على شاشات أي رجل في العالم، حتى أنت، الرجل الذي أحب جسده. هل يمكن لجسدينا أن يتحابا ؟ لماذا ثلاثة أرباع الأدب العربي يخاف الجسد ؟ هؤلاء البلهاء . أنا سأكتب كثيرا عن أدق تفاصيل الجسد . جسدك يا حبيبي هل تسمح ؟ وحتى إن لم تسمح سأفعل ذلك . أعرف أنك ستقول كيف تكتبين عن جسدي دون أن تعرفيه أعرف أنك شقي . لكن اطمئن يا سيدي . سوف أعرف في الوقت الملائم. ساعتها ربما أسمح لك بأن تعبث في جسدي فأنا أعرفك على الأقل . ألست معي بأن العالم قد بات فظيعا. ألست معي ؟ هه ؟ عيناها هما الجميلتان. سوادهما ليل دامس وبياضهما زبد داكن. فقلت لها بأن في عينك حور، قالت بسرعة أنا في عيني حول ؟ إخص عليك وضحكت... وكانت أسنانها بيضاء ومرصوصة بعناية فائقة وفمها شهواني وكرتاها صلبتان وضئيلتان وكفها الوردي الدافئ الصغير ينام مستريحا في جسدي وقالت لي بخوف بأن العالم فظيع وأن، الشر هو الذي ينتصر في النهاية غالبا بعكس ما تؤكده الأفلام العربية والأمريكية الشريرة التي أضحت تمسك العالم كله الآن بخيط رفيع تحركه في الاتجاه الخاطئ دائما وبعكس اتجاه روحي، وروحي قد زهقت خلاص من كلامك الجميل وأصابعك الجميلة برضه والتي أضبطها دائما تقاضيني في المنام وتلعب في شعري، الذي لم تره حتى هذه اللحظة بسبب الإيشارب الذي تحمّله أنت أكثر مما يحتمل. هل ترغب الآن أن أخلع كل شيء أمام الناس جميعا، هكذا، لكي تراني ؟ ثم إنها قامت بغتة _ تلك البنت الصغيرة الجميلة _ ووقفت فوق رخام المنضدة وأخذت

في بطء شديد تخلع ملابسها قطعة.. قطعة مثلما قالت، أمام العالم، وكان جسدها جميلا وبضا وبكرا ومستويا جدا، أي ليس به قطعة لحم زائدة.

(٣)

كان ذلك فوق الاحتمال، فكر في ذلك وهو يسير في شوارع الإسماعيلية الكئيبة من شدة جمالها، بالضبط في اللحظة التي وصل فيها إلى الكشك الخشبي أمام الفندق في السلطان حسين، وجدها، كان ظهرها له وهي منهمكة في مكالمة تليفونية فتمكن من سماع بعض الجمل، كان سيشتري السجائر ويصعد إلى بهو الفندق حيث يجب أن يجدها قبله بخمس دقائق على الأقل، لكنها الآن تتكلم دون أن تراه، أرعبه أنها تنطق نفس الكلمات تقريبا التي تقولها له في التليفون، وبسرعة لم يعد يرغب في سماع المزيد، بدأت تهرب من جسده في تلك اللحظة مثل بداية تسرب الغاز من أمبوبة على وشك الانفجار، هل أراحه ذلك ؟ هي لابد ستترك فراغا في هذا الجسد وعليه أن يبحث عما يعوضه، و لأن هذه المدينة شديدة البخل وفارغة مثل كهف من العصور الوسطى فإنه صعد بسرعة السلمات وجلس فوق منضدتهم المعهودة، جاء هاني _ النادل الجميل _ ووضع أمامه طبقا صغير به حبات فول سوداني لامع كأنها عيون حيوان بحري تنظر إليه، وزجاجة بيرة، ثم جاءت هي.. لدهشته وجد أنها مختلفة عن المرات السابقة، هل لأنه يراها لأول مرة وهو جالس ؟ أم لأنه قد سمع الكلمات وهي تقولها لغيره مثل فلاح ضبط زوجته تنام مع آخر، هاجمته بغتة صورة (سارة) وأحس الآن مدى أن تأكل ديدان الشك ذلك العقل الجبار لعباس العقاد، كان يعرف أنه لو فتح هذا الباب فإن كل مكونات الجحيم ستدخل منه. هل تستحق هي وقد جلست الآن ووضعت حقيبتها أمامه مباشرة وهي تقول: الجميل مكشر ليه ؟ انت جيت من

زمان ؟ وخزته الكلمة مثل دبوس لكنها سرعان ما قالت: كلمت واحدة صاحبتي دلوقت . فقال هو :آه.. سوف تطبق سارة على عنقي من جديد. وقالت هي : صحيح مالك ؟ في حاجة ؟ تأملها الآن في هدوء، واكتشف في دهشة أنها تعلق فوق صدرها الصغير قلادة من الفضة على شكل قلب فأخذ يتأملها في صمت، كانت _ القلادة _ مستكينة فوق صدرها مثل كلمة ليس لها معنى محدد، مجرد قلب صغير من الفضة الخالصة معلق في سلسلة لامعة. عجباك ؟ بابا جبهالي امبارح بس. قال بسرعة دون تدبر : بابا برضه ؟ قالت في غضب: وبعدين بأه ؟ تذكر وهو ينظر إلى صدرها الصغير الضامر كم كانت رائعة مثل طفلة وهي مستاءة من صغر هذا الصدر ، وهي تهمس له في ظلام الغرفة : لقد صدمني بائع الفساتين .. ابن الكلب.. حيث قال أن خراط البنات قد قام باللازم فيما يتعلق بنصفي الأسفل لكنه نسي أن يفعل ذلك بالنسبة لنصفي الأعلى.. كانت تضحك في غضب وهو يقول لها أنه بائع ابن كلب فعلا، رغب في أن يقول لها أنه الآن قد عثر على التشخيص الصحيح للحالة، هذه العلاقة التي تربطهما معا مثل حبل أسيء ربطه، المشكلة أنها تضع هذه العلاقة بجيبها الداخلي، أما هو فإنه يعلقها – العلاقة – فوق صدره، فوق القلب، فتظل كبندول ساعة ضخم تضرب فوق هذا القلب، دائما، طوال الوقت، طوال النهار، بينما هي رابضة مثلما قلت بجيبك الداخلي تخرجينها فقط في الوقت المناسب.

كان (هاني) قد جاء مرة ثانية لتنظيف المنضدة وليتصنت قليلا، ويسألهما إن كانا بحاجة إلى مشروب آخر، فصمت هو لحظة، كانت قد خلعت القلادة بهدوء ووضعتها في الحقيبة. قالت بعد أن انصرف (هاني): أنت تنظر إلى الأمر بشكل مختلف.. أوفر.

وسكتت قليلا ثم أردفت في هدوء: ليس ذنبي أنك سمكة تعيش خارج الماء. أيها الرجل العجوز. وخبطت الجملة الأخيرة فوق الطربيزة مثل قطعة ملاط ضخمة قد سقطت من السقف فأحدثت

دويا هائلا، فأحست هي على الفور بأن شيئا ما لابد أن ينقطع. كانت الشمس قد بدأت تتسلل مثل لص من السلطان حسين وتتمدد أمامهم على الطربيزة في صمت، كقطة صفراء هزيلة تنظر إليهم في استرحام. والشارع ذاته قد بدأ يموج بالحركة، السيارات بدأت فرحها اليومي وبدأ العاشقون – الذين يحاولون سرقة أوقات جميلة من أماكن عملهم – يقبلون على المكان، واكتظت قاعة الفندق فجأة بأناس مشوهين كأنهم أسرى حرب قادمون من أماكن مجهولة، وهو تأكد بأن (سارة) قد تم تخليقها من جديد، وأنها موجودة دائما، وقد لمح ذلك الشيء وهو ينقطع، ثم رآها وهي تخرج القلادة مرة أخرى من الحقيبة وتضعها في جيب قميصها الأبيض الشبيه بقمصان تلميذات المدارس، دققت في ساعتها فجأة ونظرت في جدول صغير يشبه جدول الحصص تعلقه في رقبتها وقامت كذلك فجأة دون أن تمس مشروبها وقالت: سلام.

(٤)

الزقازيق هل هي الزقزقة أم الزقوم ؟ زقزقة العصافير أم الطعم المر لنبات جهنم ؟ أم هي الزقاق الذي جمعه أزقة ؟ زقاق نجيب محفوظ حيث حميدة. حميدة أم بثينة أم ثناء. أيا كانت فهي تحتضنه –تقريبا– إذ تلف ذراعها حول ظهره وهما جالسان في المقعد الخلفي – للبيجو الأجرة – من موقف الإسماعيلية في الصباح الباكر. أحس بأصابعها اللدنة وهي تدغدغ أعلى كتفه من الخلف، في بطء ثم هستريا غريبة حتى أنه أضطر أن يلمس بكفه ربلة ساقها اليسرى التي هي جواره فضمت ساقيها بسرعة وحبست كفه بينهما وابتسمت قائلة: حبستك يا جميل. مثلما كانت قد قالت له صباح الخير يا جميل عندما وجدها واقفة على بعد من الموقف: السائقون جميعهم يعرفونني.. أربع سنوات رايحه جايه أسبوعيا. فقال لها مفهوم. تلك الأربع سنوات. كانت صغيرة لابد وخام عندما احتضنها بسنواته الأربعين ومفهومه

المتخلف عن المسرح وهي حرة تقريبا في دخولها وخروجها من بيت الطالبات: أول مسرحية مثلت فيها كانت الأميرة تنتظر لصلاح عبد الصبور. كنت أنا الأميرة بالطبع وكان هو المخرج المحنك. من يومها وهو أبي. . أبي..أبانا الذي في الأرض..فليتقدس اسمك. غرق في الضحك بينما هي مغتاظة وهي تقول له: بتتريق ؟ طيب .أنت أيضا أبي. كان (هاني) يقف منتظرا أن تحدد نوع المشروب الذي ستطلبه وهو يبتسم في بلاهة بينما هي تصر على أنها لن تشرب شيئا. خليك في البيرة بتاعتك. برفق ربت بكفه – بعد أن تحررت من سجنها الدافئ – فوق خدها المحمر من الانفعال: إنت زعلتني ؟ ! أنا آسف. وكان (هاني) قد انصرف، والمكان خال تماما فنزل بكفه من الخد إلى الأسفل: مش قلت نبطل شغل الأوتوبيسات بأه؟ شغل الأوتوبيسات ؟ فكر بأنها ما زالت صغيرة على شغل الأماكن الحميمة.(هكذا فكر هو . لكنني أنا عبد الحميد الذي أكتب هذه القصة أجزم بأنها ليست صغيرة أبدا على هذا الشغل. فقط هو غارق في رومانسية منقرضة). نفيشه، الواصفية، أبوصوير، المحسمة، القصاصين، التل الكبير، العباسة، مدن صغيرة ملقاة على جانبي ترعة الإسماعيلية مثل جثث لحيوانات ميتة. هذه الأماكن التي شهدت هزيمة عرابي. هزيمه٦٧ . ثم الهزيمة المرة من المدن الحرة المجاورة. ربما هزيمته هو شخصيا. هل هو مهزوم حقا ؟! وهي ما زالت قابضة فوق كفه بساقيها. وسائق البيجو بدأ يسلط مرآته عليهما، والأشجار الكثيفة على جانبي الطريق تركض بسرعة جنونية إلى الخلف، و الزقازيق تقترب، الموقف، سهم يشير إلى الجامعة ثم قالت له: نصف ساعة فقط، أسلم عليه و ارجعلك.

جلس لمدة نصف ساعة فقط فوق مقعد رخامي في المزرعة المواجهة للمبنى، مسرح كبير وقديم يعاد تكوينه، حيث شاهد عددا من النجارين أثناء خروجهم من الباب المواجه للمقعد الذي يجلس فوقه، ما هي العلاقة بين النجارين الخارجين يحملون مناشيرهم و أدواتهم وبين نسبية أينشتين ؟ لماذا يتذكر تلك

النظرية والعالم العجوز يحاول إدخالها في فم امرأة برجوازية مذهلة مثل بسكوتة ؟ هل لأنه مكث طويلا فوق المقعد ؟ والجو قد انقلب بغتة وهبت تلك العاصفة التي خلطت السماء بالأرض، حتى أنه قد شاهد الأرض وهي تتشقق، والسماء وهي تمطر أحلاما صغيرة على شكل دجاجات تنط فوق حجره فور ملامستها للأرض، وحجره وقد تضخم ما بين ساقيه جدا مثلما يحدث له أحيانا، فتيقن بأن جسدين إنسانيين يتماسان في هذه اللحظة، وأن تداخلا بين أعضاء الذكورة و أعضاء الأنوثة يحدث لابد توا، وربما بدأت حبات اللقاح للأشجار الكثيرة على الحدود تنهمر فوق المزرعة والمسرح الذي قد صار له فيهما ثلاثة أرجل وقرنان، حينئذ وجد نفسه على باب المبنى الذي هو مسقوف وبالغ القدم، ومكتظ بالظلمة، هل خاض الآن في الظلمة أم أنه غارق فيها منذ أن قالت نهار جميل ؟ إنه مولج فيها بالتأكيد منذ أن قالت له في (نفرتاري): عيناك جميلتان هذا النهار. الظلمة هنا متجسدة وحية كأنها حيوان وحشي يملأ المكان، بعد هنيهة تعودت عيناه الرؤية، بدأت الكراسي المحطمة والممرات بينها تظهر وتبين، كان عليه أن يجدهما في هذه المتاهة، ثم بدأ يتخبط في حيوانات الظلام، الخفافيش التي تنط بغتة من أماكن قرب وجهه ثم يبتلعها المكان، كان لأجنحتها صفير مخيف، وبدأت العناكب الكبيرة جدا رحلتها في مطاردته، والفئران الشديدة السواد كأنها قطط تقفز قرب قدميه في سرعة وتهرول في خوف، فكر أنه لو خلع نظارته فسوف يتمكن من الرؤية بشكل أفضل، فأمسكها بيده، وفجأة أحس ببؤرتين تظهران، تضيئان باستمرار الأماكن التي ينظر إليها، ولما اكتشف أن عينيه تحولتا إلى كشافات قوية اندهش جدا لكنه لم يخف فإنه قد شحذ جسده وخلاياه جيدا، كان مستفزا ومرهقا وممتلئا بالكهرباء، أخذ بسرعة يمسح المكان بعينيه المشعتين فتتعرى الأشياء وتبين إلى أن تمكن من رؤية مئات من أعقاب سجائر البلمونت مبعثرة، تكون خطا طويلا متعرجا، فاتبعه، أخذ يهرول خلف البلمونت وهو يتخبط في أطراف الكراسي الخشبية

والديكورات المهشمة لمسرحيات قديمة وجماجم واسعة حدقاتها وهي تحدق فيه برعب، ثم أنه بدأ في سماع الأصوات الخافتة و الهامسة والزاعقة، هو يعرفها، هذه الأصوات، هـــي مألوفــة، أجزاء من حوارات قديمة كان قد سمعها أو قراها، وكأن المكان كان يختزن كل هذه الأصوات وفجأة دبت فيها الروح، كان ذلك يؤرقه قليلا، لكنه استمر في البحث وهو يدهس أعقاب السجائر إلى أن وصل إلى نهايتها، وفوق خشبة المسرح وجــده قائمـــا، وكأنه منذ الأزل، هذا السرير النحاسي الذي يقف على أعمــدة صفراء لامعة، محاط بناموسية من التيل الأبيض تشد قبضـــتها حول عواميده المشرعة في الظلمة، كائن ومتحفز ومجلو كأنــه ينتظر ليله عرس، بسرعة أخذ يتخبط في الأشياء والأصــوات إلى أن تمكن من لبس نظارته من جديد، وتمكــن كــذلك مــن الخروج بصعوبة تاركا المســرح وراءه فالمحطـــة، وأشـــجار الطريق تركض بجنون في الاتجاه المعــاكس، العباســة، التــل الكبير، القصاصين، المحسمة، أبوصوير، الواصفية، نفيشة، ثــم الإسماعيلية المستكينة كأنها امرأة تتمطى بعد ليلة جنس مرهقة.

(٥)

المبنى الصغير المسمى مستشفى مخبأ في مكان كئيـــب، وأنـــا أجوس راكضا تقريبا
غابة الأشجار والنخيل ونبات الحلفا والغاب والدنيا تمطر بعنف وكأن كل الكائنات الحية تشهق معي، هكذا النفس يخرج من الفم بقوة، ويحدث صوتا، مثل فحيح ثعبان ضخم بحجم الألم والبلل الذي يغمرني. رأيتها - بثينة- وهي نائمة فوق سرير صـــدئ، من تلك الأسرة التي كنا نستخدمها في الجيش، ســرير بالكـــاد يكفي عرضه لشخص ضئيل وطوله لشخص قصـــير، عيناهـــا ذابلتان وغائمتان ووجهها قد صار بلون وجوه الموتى (عيناهـــا الجميلتان والتي كتبت أن بهما حور ذات قصـــة)، هـــي الآن وحيدة وخائفة وعندما رأتني أخرجت يدها الشاحبة أيضـــا مـــن

تحت بطانية صوف مهترئة وضغطت فوق كفي، أمسكت يدي بعنف كأنها غريق يمسك بآخر قشة تربطه بالعالم الحي وقالت في وهن: مش أنت.. لازم تعرف.. مش أنت .
كنت أعرف بالطبع حيث أن كائناتي الحية الصغيرة لم تكن قد شقت بعد طريقها إلى دهاليزها الدفينة فقلت في همس: أنا عارف. ثم جاءني صوتها الضعيف: مش عايز تعرف مين ؟: مش وقته..المهم سلامتك الآن. كانت الدنيا قد أسودت بشدة، والمطر يسح بغضب هائج وأنا أشق طريقي بصعوبة وسط الأشجار الكثيفة، لابد أنني سوف أستمع الآن إلى آذان المغرب يصدح من الميكروفونات المحيطة بالغابة، وحاولت النظر إلى ساعتي المغبش زجاجها الآن بماء المطر وصوتها يرجوني ذات مرة: لا تطلبني ساعة المغرب. بابا يكون موجودا للإفطار.. إنه يصوم يوم الاثنين والخميس، كما تعرف. قبل المغرب بساعة أو بعده بساعة. أرجوك . بدأت الكلاب في الصياح فجأة، لكنها لم تكن تهاجمني، فقط كانت تعوي وهي تركض خارجة من بين الأشجار متجهة صوب المدينة، ودهشت لذلك، لأن الكلاب كانت تكرهني دائما وكنت أكرهها. لماذا لا تهاجمني ؟! بينما رأيت الخفافيش كثيرة تنبثق بغتة من بين الأشجار، مختلفة الأحجام، فرادى وفي أسراب كأنها طائرات سوداء تحوم حول المكان.
كان لا بد أن أحدد موضعي الآن فأنا في بداية الغابة، تلك الأشجار الكثيفه التي تمت زراعتها منذ زمن بعيد، كان علي أن أخترق من المنتصف تقريبا، في طريق سبق وأن مشينا به كثيرا، ربما أجد تلك المستشفى أو الكهف الذي كان خندقا كبيرا للجنود أيام الحرب فاستغله الدكتور فايز – وهو طبيب قد تم فصله من الخدمة لقيامه أكثر من مرة بعمليات لا يقرها القانون – وصنع له بابا حديديا سريا ووضع به سريرا صغيرا لإجراء تلك العمليات. كانت الظلمة تشتد، وأضواء المدينة التي أنيرت دفعة واحدة قد بعدت الآن فأحسست أني أنزلق عبر نفق أسود. و" بثينة " تقول لي: مش انت. فأقول لها: عارف، مش أنا. والحياة تفر بهدوء وآلية من جسدها. الذي كان دافئا ومثيرا وهي

تقول لي: شعر إيه وبتاع إيه.سيبك من الكلام الفارغ ده. أنا عايزة أبقى غنية. فاهم ؟ لم أكن أفهم بالطبع وهي الموهوبة ومدحت – صديقي المثقف الدائخ – يقول لي بأن الموهبة الحقيقية تفرز الواقع وتنقيه وتركن الهامشي والاستهلاكي وترميهم في الزبالة. هل كانت موهوبة حقا ؟ أم كان مدحت مخطئا ؟ لكنه هو الذي أسرع إلى شقتي وظل الجرس يرن كثيرا حتى فتحت له الباب، وكان عرقانا ومجهدا وقرفانا. وحين فتحت الباب قال لي بلهوجة: أسرع بثينة في الخندق.. حدث ما كنت تخشاه ولجأت إلى " فايز". هي الخفافيش إذن. كيف تمكنت من غزو هذا الجسد المستوي الجميل. كان علي أن أسرع الآن. كنت قد تخلصت من كتلة الشجرات الكبيرة التي تحمي الغابة و تحرسها.. ووجدت الطريق. عثرت على المدق الذي كنت أعرفه حيث سينتهي في طرف الغابة الآخر، والفراغ والطريق المرصوف المؤدي إلى المدينة الحرة، وتلك الخرابة التي سوف ينتقل إليها السوق الجديد. حيث عواميد الإضاءة المطفأة والخندق الذي كان مدحت يسميه " مستشفى فايز للحالات الحرجة " اشتد المطر وأحسست بأعضائي ترتجف، وكانت المياه تسقط من الأشجار فوق وجهي وجسدي فأشعر أني أعوم في ماء عكر، قلت فلأسرع الخطو، وأخذت أركض فوق المدق الذي لابد أن ينتهي في آخر الغابة حيث سأجد الخندق" وبثينة " ممددة في هدوء و د/ فايز غارقا في عرقه مرتبكا، ومدحت يصرخ فيه بعنف: وديتنا في داهية. وعيناها مفتوحتان لا ترمشان، لكنها عندما تراني تهتف في ضعف: مش انت. فأقول لها: عارف . وتضايقني نباتات وأشواك المدق الصغيرة ، تتفتت وتدخل بين الحذاء والجورب ، وتلسع باطن قدمي فأقرر خلع الحذاء ، وأخيرا ألمح الضوء من بعيد جدا ، هو ليس ضوءا كاملا ، مجرد شعاع خافت مرتعش ، وأخمن الآن موقع المستشفى فأجري دون وعي وقد كفت الخفافيش عن مضايقتي وقد تبلل قميصي بالكامل فأقرر خلعه أيضا ، وأرميه جانبا وأحس بالبرودة الشديدة ، تنتابني رجفة . لكن هاهو الأسفلت ..

انتهى المدق وهاهو الأسفلت . لابد أن هناك خطأ ما .فالسيارات تمرق من جانبي بسرعة رهيبة ، أضـواؤها تعمـي عينـي ، ولكنني أجري فأدخل مكانا غريبا ، مزدحما جدا ، ما كل هؤلاء الناس ؟ كأن الأرض قد تقيأتهم فجأة ، هل هذا سوق ؟ ربمـا . لأن البضائع كانت مكدسة على الجانبين ، ملابس من كل صنف و بألوان متعددة ، أدوات كهربائية عديدة تلمع حوافها حيث أن عرق السماء قد كف و صفا الجو ، كان الرجال يضـربونني بعنف وأنا أركض وسطهم ، رجال غريبو الوجوه ، أجسـادهم عريضة وسوداء ويربطون رءوسهم بعصـابات مـن القمـاش اللامع ، تزعق أصواتهم بعنف بأسماء بضاعتهم و أثمانها كأنهم في مناقصة عامة ، والنسوة عاريات تقريبا يتجمعن حول عربة يد خشبية صغيرة وهن يرقصن رقصـة شـبيهة بالرقصـات الإفريقية المشهورة ، والملابس تتناثر حولهن ، قمصان النـوم والملابس النسائية الزاهية الألوان وأنا أبحث في وجوههن عـن وجه بثينة حتى وجدتها . لكنها كانت ممددة فوق السرير الصدئ وهي تقول : شـعر إيه يا عم .. فوق .. أنا عـايزة أبقـى ... فاهم ؟

لكنني لم أفهم ، فهناك خطأ لابد . لأن الخندق يقع خلف المـدق مباشرة . فتوقفت قليلا . تريثت قليلا . حتى أعيد النظـر مـن جديد .

(٦)

كان صمت ، وقطرات مطر خفيفة تنقر الزجـاج العـريض كمناقير لعصافير مذعورة ، الزجاج " فاميه " بني غامق لنافـذة كافيتيريا (علي بابا) في قلب ميدان التحرير ، وكان غضب . قالت : هذا هو جوّي ، بموت في البرد .. في الخارج الجو ملبد بالغيوم ، وهي تلف نفسها بالبلوفر الصوف بينمـا (الجيـب) القصير يكشف عن فخذين طويلين محببين من أثر البرد . لكن كان غضب .

هو قد نظر من النافذة المستطيلة ، في حياد ظاهر ، لم يكن ينظر إليها. لم يكن يرغب في النظر إليها ، ولما تمكن – بصعوبة بالغة – من رؤية النصب في قلب الميدان هاجمته برعونة فكرتان محوريتان ، هما الكعكة الحجرية والعضلة القابضة .

هناك فرق بالطبع بين " الكعكة الحجرية " وبين " العضلة القابضة " فالأولى هي قصيدة الشاعر أمل دنقل (الذي اغتيل بواسطة السرطان) والتي كتبها عقب الأحداث الطلابية عام ١٩٧٢ ، هي ليست كعكة عرس أو عيد ميلاد ، لكنها التفاف وتشابك أيدي و غازات مسيلة للدموع وضرب بالهراوات وتأوهات وأناشيد وأشعار مؤلفة بنت اللحظة وحناجر تزعق بالهتاف القديم الجديد . كانت جالسة إلى جانبي مقرفصة ، ظهرنا للمتحف المصري ووجهنا للنصب ، كنت أريها القطع الذي حدث في بنطلوني الجينز الوحيد الذي أمتلكه ، وهي تدلك الجرح بيدها البيضاء في حنو شفيف ، كان جندي الأمن المركزي وفي لحظة غضب مفاجئة قد هوّش ناحيتنا بكعب بندقيته وكنت قريبا جدا منه فاشتبكت قطعة حديدية منه ببطن ساقي وتركت أثرا داميا بطول الساق بعد أن تمزق البنطلون السميك ، تكالب عليه الرفاق وأزاحوه بعيدا ، كانت (شاهنده السمري) هي الأقرب لي ، قرفصت إلى جانبي وأخذت تجفف الدم بمنديل ورقي في يدها ، ما زال الدم يتدفق ، كان الجرح غائرا جدا وطويلا ببطن ساقي فوقفت حائرة ، الرفاق منشغلون كجنود في كتيبة مرتبكة ، كادت معركتهم أن تنتهي دون نتيجة حاسمة ، كانوا يلتفون حول الميدان في فوضى وعصبية دون أن يلتفتوا إلى جرحي النازف ، فقط كانت شاهنده حائرة ، تكتم الدم بيدها التي غرقت الآن بالدم دون فائدة ، ثم قامت فجأة وبهمة ــ كأنها اتخذت قرار حياتها ــ بفك أزرار بلوزتها العلوية وانتزعت " السوتيان " كان أبيض وباهتا ومبطناً بطبقة طرية من القماش السميك ، ولفته فوق ساقي ، بحذق ومهارة ممرضة محترفة ، ونسيت أن تعيد الأزرار إلى وضعها فبان

صدرها ولم تهتم ، استكملت ربط الجرح فتوقف سريان الـدم ، ثم أنها ظلت تطبطب فوق الجرح كأنه طفل ترغب في إنامته ، فيما رحت أنا أزر لها البلوزة المفتوحة ، وأسوي لها شعرها الأسود الفاحم الذي يعوق رؤيتها ، حتى أننا قد جلسنا فوق الرصيف ، وسط ضجة الرفاق متلاصقين مهدودين في انتظار أن يعلن السادات الحرب أو يكتب أمل : أيها الواقفون على حافة المقصلة ...

***

كان غضب ، في داخله كان الغضب ، بعد أن قالت " بموت في البرد " كان الغضب يفور بداخله مثل ماء يغلي ، وكان ينظر من النافذة العريضة فيرى الهيلتون ، وجامعة الدول العربية ، نفس المباني القديمة وقد فقدت روحها ، ثمة شيء غامض قد هجم عليها و فرغها من مضمونها الأصلي وفكك من بنيتها الداخلية ، على اليمين المتحف المصري وقد هده التعب والمطر الخفيف يتساقط في رتابة فوق بنائه الباهت ، وفي المواجهة النصب ، آه ... ذلك النصب مغروس في القلب مثل عرافة عجوز أفقدها التغير المباغت قدرتها على الرؤية ، والتنبؤ ، والناس ، ناس القاهرة ، يركضون تحت المطر مكللين بالعار ، مهزومين يدفعهم بؤسهم اليومي المرير ناحية الشوارع الجانبية تجاه المبنى الأبيض للجامعة الأمريكية حيث بدأت البنات الفاتنات الآن بسيقانهن الطويلة الفاتنة وشعورهن الملونة في المشي الحثيث نحو سياراتهن المركونة في مدخل شارعي القصر العيني وباب اللوق ، كان مطر خفيف ، وكان غضب ، الغضب يخصه هو وحده ، كانت قد جاءت بعده بساعة كاملة وطلبت الليمون بدون سكر وأحضر له النادل زجاجتي البيرة مرة واحدة بناء على طلبه ، وقالت هذا هو جوّي وكانت تبتسم ، كانت الكافيتيريا خالية تقريبا إلا من حبيبين جالسين على جنب يتبادلان تلامس الأيدي وتحسس الأجساد ، في مثل تلك الأوقات كانت تترك الكرسي المواجه له وتجلس إلى جانبه ، تلتصق به "

علشان نعرف نتكلم " وكان هو في فرح يمسك بكفها الصغير الوردي بين كفيه كعصفور يخاف عليه من الطيران المباغت ، ويمسح فوق ساقيها الطويلتين الجميلتين في حنو كي يدفئهما من البرد لكن كان غضب ، غضبه الخاص ، حتى أنها بعد أن أشعلت سيجارتها " الكنت " الثالثة قالت وهي تتصنع القلق : آه .. بالنسبة للمرة إلي فاتت . مقدرتش أفلت .. كان فيه ظرف صعب قوي ..هتسامحني .. مش كدة ؟؟ .. عندئذ بدأ غضبه الخاص في الظهور ، وبدأت اللحظة التي حاول كثيرا الهروب منها في التثبت . كان قد شرب زجاجتي بيرة أيضا في المرة إلي فاتت ، وفندق " حور محب " بزينته الفرعونية الزائفة ، وهي لم تأت ، مرت الدقائق والساعات ولم تأت ، فاضطر إلى مغادرة الفندق في الخامسة وهجم عليه شارع الهرم مثل كلب مسعور ، في بهو الفندق ومنذ الثالثة كلن الإخوة العرب يروحون ويجيئون في جلابيبهم البيضاء الملتصقة بأجسادهم ، وهم يحملون هواتفهم المحمولة وكأنهم يديرون حركة الكون ، ونساؤنا المصريات في أعقابهم وكأنهن مربوطات بحبال النفط وشهوة الاستهلاك المدمرة ، يأتي الواحد منهم – الأخوة العرب – وسيالته مكدسة بالدولارات فتنفتح الثقوب في شارع الهرم ، و في الحواري وفي قرى الدلتا، تتفتح ثقوب الأنثى كلها حتى الثقب الثامن المقدس ، والذي على الأخ العربي أن يحدد – طبقا لمزاجه الشخصي – إن كان من قبل أو من دبر ، مثل كلب مسعور شارع الهرم ، هاجمه أيضا الصهد الذي يطرده الشارع من جوفه ، وكان الشعور بالمرارة لعدم مجيئها قد بدأ في الصعود ، فجلس على أقرب مقعد حجري تحت مظلة الباص الذي سينقله إلى ميدان التحرير ، كانت المحطة مكدسة بالخلق ، ثم حدث الأمر ، في لحظة خاطفة مباغتة غير إرادية ، بدأت الرعشة من أسفل . من القدمين ، ثم الساقين ، رجفة غريبة كأنها آتية من خارج جسده ، وضد قوانينه البيولوجية الخاصة . الساقان الآن يرتجفان فيضمهما ، فلا يلاحظ أحد من الجالسين إلى جواره أو الواقفين أمامه أو خلفه شيئا ، فقط يضم ركبتيه

وهما تتشنجان ، ترتعشان وكأن الروح تخــرج منهمــا تــوا ، يضمهما بقوة – الركبتين – وهو يضع كفه بين ساقيه ، ويشعر به ، عضوه ، غير منتصب ، ساكنا ، هامــدا تمامــا ، إلا أن السائل يصعد من ركبتيه ، سائل صلب ، كثيف ، يصعد بهدوء وبروية ، في صبر و أناة ، عبر لحم ساقيه وداخل شــرايينها ، متجها صوب كرتيه الصغيرتين المستكينتين تحت قبضة كفــه ، ثم عبر القضيب الساكن أيضا في قذفة قوية ، مثــل البصــقة ، سميكة ووافرة ودافئة ، فيغرق غياره الداخلي ، وتظهر البقــع الداكنة فوق البنطلون ، ويغمره العرق فيشعر بالانتعاش المفاجئ ، والسكينة ، كأنه قد سقط في بئر ماء بارد ، وينسى تماما أنها لم تحضر ، هو حر الآن وهي لاشيء ، بنت وسخة دايرة على حل شعرها ، ينسى حتى الإخوة العــرب ، وحــور محــب ، وشارع الهرم ، والثقوب الثمانية في جسد المرأة ، فقط الآن هو حر ونشط وممتلئ بالثقة والانتعاش .

* * *

ها هو إذن يدخل عالم الكوابيس ، بالرغم من كونه مدركا تماما أنه قد نزل من الميكروباص الآتي مــن الهــرم ، وعنــد نزوله تحت كوبري أكتوبر كان الموقف الجديد غريبا ، الفنــدق الفخم الجديد الذي شيد بعنف وقوة رأس المال قد طوح وبحركة واحدة بالكاتدرائية الجميلة التي كانت تتوسط الميــدان ، خلــف المتحف وبيت عمته ميمونة بأدواره الثلاث قد أزيــل تمامــا ، وكذلك بيت بلواكي والبيوت الصغيرة المقابلة حتى ورشة توستا وتوني ، كان يقف وهو صغير أمام المنزل ليرقــب مــذيعات التليفزيون وهن مارات متوجهات إلى المبنى القريب ، يــرقبهن وهو القروي في انبهار بين صورهن الصغيرة فــي الأبــيض والأسود ، وأجسادهن الحية الآن وشعورهن المرتبة وملابسهن المثيرة وهن يتمخطرن أو يضممن البلاطــي الصــوف فــوق أجسادهن الممشوقة الحلوة . ثم هدير المترو المفــاجئ يوقظــه وهو يفرمل عند نهاية الخط ، والنيل شاخص تجاهه ، لا يفهــم

شيئا بالتأكيد ، ولا يعلق على شيء ، هاهي روحه العجوز تترنح وقد ساءها أن يحدث ما يحدث ، وهو أيضا كان مستاء فقرر أن يخترق ميدان عبد المنعم رياض متوجها إلى ميدان التحرير ، أو يدخل شارع محمود بسيوني ليستعيد رحلته القديمة منذ عشرين عاما ، هو وإبراهيم ابن عمته ميمونة تلميذ الإبراهيمية الثانوية الذي كان مفتاحه لدخول القاهرة ، يأخذه إبراهيم فور وصوله إلى شارع سليمان باشا ثم إلى وسط البلد ، بنات مصر فرحات كاشفات عن أذرعهن وسيقانهن ، بينما الرجال صارمو الوجوه يركضون في الشوارع دون سبب محدد، ثم هو وإبراهيم يأكلان الآيس كريم من جروبي سليمان باشا ، الآيس كريم اللذيذ بالفستق في قراطيس من مادة طرية تذوب في الفم .

هاهو إذن ينتهي من شارع محمود بسيوني ويفكر في المرور على الآتيليه أو حزب التجمع ، لكنه يركض دون النظر إلى مكتبة مدبولي التي تقلصت الآن وبدأت تلملم أطرافها من الشارع إلى داخل المبنى ، ثم يعطي ظهره للتمثال البعيد الذي يقف بلا معنى ويتجه صوب شارع سليمان ، وقد بدأ يشعر بالجوع .

[بعد أن شعرت بالجوع تذكرت التابعي الدمياطي ، بالاتجاه يمينا قبل سينما مترو مباشرة حتى ميدان عرابي ، سأجد بالتأكيد عبد الفتاح الجمل يخطف ساعة من عمله بجريدة المساء المجاورة للتابعي ، هو القصير بشعره الأكرت ونظراته القلقة المتوثبة ، كما أنه صانع كوكبة من الكتاب ، أو فلنقل أنه أعطى الفرصة لجيل كامل من كتاب الستينات للبزوغ والتحقق ، سأترك كل ذلك ورائي ، لقد انتهى كل شيء الآن وبدأ الحلم في التحول إلى كابوس مقرف ، كل شيء ، كنت أسير في اتجاه ميدان عرابي ، غائبا تقريبا عن الوعي ، والبقع التي فوق البنطلون بدأت تظهرها الشمس ، لم تجف بعد ، دمها المراق فوق رجلي لم يجف بعد ، كأنني دودة ، كأنني إحدى شخصيات " كافكا " فكرت كثيرا من قبل ، كيف استطاعت هذه البنت

الصغيرة أن تتمكن مني إلى هذا الحد ، هي الآن لم تعد بنتا ولم تعد صغيرة ، هي التي كتبت عنها في قصصي السابقة ، عن البنت الجميلة ، كانت في الرابعة والعشرين ، تماما ، قالت لي ذات مرة : اسمع .. أمامي الآن خمس سنوات فقط ثم يبدأ الكبر يركبني ، ففهمت أنها تفكر بلغة السوق ، أدركت أن سنوات الانفتاح الاقتصادي قد رسخت قوانين السوق ، كل واحد يدخل ومعه رأسماله ،الإعلانات المستمرة كذلك في الراديو و التلفزيون ، قد تمكنت من خلق إنسان جديد، قالت : لا أملك سوى جسدي .. أنا الآن صغيرة وجميلة وأمامي خمس سنوات فقط .. وكأني تاجر ناجح لابد أن أستثمر رأسمالي الخاص ، ملكيتي الخاصة ، كانت قد نامت مع أربع رجال كبار حتى الآن، أربع محطات للوصول ، الوصول إلى ماذا ؟! كانت تتعامل مع جسدها مثلما يتعامل التاجر مع دكانه ، بضاعته . عندما ألمسها في موضع ما من جسدها تصرخ على الفور : حاسب على البضاعة . كان جسدها بضاعة بالفعل ، كان ذلك منذ أربع سنوات مرت ، هي الآن ليست بنتا وليست جميلة ، الآن وأنا قد انتهيت من ميدان عرابي متوجها ناحية التابعي الدمياطي أراها على حقيقتها ، عيناها التي كتبت عنها زمان . هما عينان آسيويتان مسحوبتان بغير نظام ، وجهها منفر وفمها كبير وغير متناسب مع حجم الوجه الطويل الرفيع وكأنك تنظر إليه من زاوية منحرفة دائما هي الآن تكاد تكون دميمة ، بل هي دميمة بالفعل وتيقنت بأن الكاتب يصنع دائما من المرأة التي يحبها أسطورة ، دون مبرر معقول ، هل نكتب دائما عن المرأة التي من خيالنا ولا نرى المرأة الواقع دائما ، ولكن ما هو الواقع بالضبط ؟! كان عبد الفتاح الجمل يصرخ في وجهي دائما بأن أكتب عن الواقع ، هل هناك واقع فعلا ؟! هذه السيولة المتدفقة عبر الزمن مثل تيار ماء يجرف كل شيء في طريقه ، ميدان التحرير ، الكعكة الحجرية ، الكاتدرائية ، بيت عمتي ميمونة المتحف المصري ، بيت بلواكي ، النيل ، و شاهنده السمري وكل هؤلاء البشر من حولي ، ميدان عرابي لم يعد هو ميدان

عرابي ، معرض الهيئة العامة للكتاب فأنحرف يمينا ، شبه راكض ، وطرف عيني فوق البقع التي تلوث سروالي ، الأكشاك الكثيرة التي تكدست في شارع عرابي مثل بقع سرطانية . ثم التابعي الدمياطي ، وأدخل ، لم يكن عبد الفتاح موجودا ، وكانت هناك رائحة نتنة تملأ المكان ، ثم أتذكر أنه قد مات منذ زمن بعيد وأن أهم كتاب مصر - هؤلاء الذين فتح هو لهم الباب قد زحفوا من القاهرة . ومن قرى مصر البعيدة إلى دمياط كي يواروه الثرى، أخذ معه واقعه ومات، الواقع مرة أخرى، هذه الذرات والأيونات التي تركض نحو الهيولي، الأجساد العطشى للتحقق والأرواح المقتولة في البراري دون جدوى، والحيرة، حيرتي أنا شخصيا و " فرويد" يؤكد بأن الفن هو تصعيد للغريزة فأبتعد عن جسدي قليلا كي أتمكن من الكتابة وبين " داريل " كاهن الإسكندرية العجوز وهو يؤكد على لسان بورسواردن: مارس.. مارس الجنس كثيرا كي تكتب كتابة جيدة. وحيرتي أمامها في قصر ثقافة الإسماعيلية الفخم مثل أوبرا، كنت أراها للمرة الأولى، قالت لي بأن مجموعتك القصصية الجديدة مجموعة جريئة ورائعة فقلت لها جيد جدا فلنجلس ونتفاهم. عندها فاجأتني: أنا أحب الأماكن المغلقة. وفي اليوم التالي كانت في شقتي.]

فلنؤجل الآن ما حدث في اليوم التالي لرؤيته الأولى لها، وكذلك عندما ذهبت إلى شقته، فهو قد قرر عدم الأكل عندما هاجمته - من المطعم المفضل لديه أو الذي كان مفضلا - تلك الرائحة النتنة. ومن حسن حظه أن المطعم الذي هبت منه تلك الرائحة النتنة كان قريبا من موقف " القللي " حيث الأوتوبيس المكيف الذي كان يفضل أيضا ركوبه عن سيارات " البيجو" والذي سوف ينطلق بعد ربع ساعة إلى الإسماعيلية. من حسن حظه لأن الجو كان حارا جدا ، كانت الشمس تصب جام غضبها - مثلما يكتب الأقدمون - فوق البشر ، هذه الحرارة وذلك العرق بالرغم من القرف الذي كان يشعر به كانت لهما ميزة كبرى ، ربما لم ينتبه هو إليها ، هذه الميزة هي الشمس قد

تمكنت أخيرا من امتصاص البقع التي كانت تلوث سرواله الداخلي " الكلوت " وسرواله الخارجي " البنطلون " الآن قد جف دمها تماما وكأنه وبمساعدة قوى الطبيعة قد تمكن من التخلص منها ، تماما ، انتزعها من داخله ببصقة واحدة ، كانت تلك البصقة لها فعل السحر ، كانت أقوى من كل تلك الحيل التقليدية الفاشلة والتي دأب منذ ثلاث سنوات على اتخاذها كي ينساها .
هو الآن سوف يركب أوتوبيس الإسماعيلية المكيف وهو خال منها تماما، خال منها و ممتلئ بذاته. سوف يركب الأوتوبيس ولن يركبها هي مرة أخرى، عندما كانا يسيران في شارع سليمان ذات محاولة فاشلة في نسيانها ثنت ذراعها في نصف دائرة، وأمسكت بذراعه وقالت: اركب.. وبالرغم من معرفته بأنها تجيد تلك الإشارات الجنسية المبتذلة إلا أنها كانت تهمس ب (اركب) هذه المرة ليست كإشارة، كان وجهها
الدميم ملتصق بوجهه، أنفاسها وعرقها وجسدها الطويل الممشوق، الطويل البارد، الطويل مثل نخلة ذكر لا تثمر، كان هذا الجسد، يا للغرابة يدعوه للركوب، وهي تقول: اركب.. وسط زحام سليمان باشا، ساعة القيلولة، ساعة حارة مثل هذه تماما، لكنه سيركب الأوتوبيس المكيف هذه المرة، وهو مطمئن، لم يعد يشعر بالظلمة ولا بأنه إحدى شخصيات " كافكا " وقد تمكن من الخروج من كابوسه، قد تمكن من الخروج منها،
في نفس لحظة خروج القذفة منه، هناك فوق محطة الباص أول شارع الهرم، في فعل ورد فعل، هو الآن سوف يذهب إلى الإسماعيلية، إلى بيته، وهو متأكد تماما أن هذه هي المرة الأخيرة، لن يراها أو يحدثها مرة أخرى، فهي لم توجد أصلا ولن توجد.

****

وهكذا.. لم نتمكن من كتابة شيء عن العضلة القابضة، أخذنا الحديث عن شاهنده السمري وعن فتاة شارع الهرم، وكذلك الحديث عن الثقوب الثمانية في جسد الأنثى،
كنت أعتقد أني أول من تنبه إلى هذه الثقوب، لكنني قرأت أخيرا رواية للروائي التشيكي " ميلان كونديرا " ذكر فيها هذه الثقوب، ثم عرفت فيما بعد بأن الكاتب الفرنسي الكبير
" فرانسوا رابليه " هو أول من لفت الأنظار إليها منذ زمن قديم.
ولكن هل هناك علاقة بين كل ذلك وبين العضلة القابضة ؟
ربما... أقصد ربما نعم وربما لا.

(٧)

قالت له في التليفون: ميعملش كده غير واحد وضيع. لحظة صمت قصيرة، لا يرد، ثم: اعتبر العلاقة منتهية.. أنا باندم على كل يوم عرفتك فيه.
جيش النمل يزحف وئيدا من أسفل إلى أعلى، قاصدا الدماغ، ويحس بأنه خارج المشهد، هذا الصوت هو صوت ممثلة معروفة يصله عبر الشارع من مذياع بعيد، فكر: وفاء لا تقول ذلك. وهو يعرفها، هل يعرفها ؟
سمعت ولا تحب أسمعك تاني ؟ أرجوك لا تتصل بي أبدا .
كل ما استطاع تذكره، بعد التهاب دماغه إثر تمكن جيش النمل منها هو بعض المشاهد القليلة:
١ – مساء في " قصر الثقافة " بعد انتهائه من محاضرة عن تطور القص الحديث، اقتربت منه وقالت: وفاء هاشم، شاعرة وقاصة، ليسانس آداب عربي ومعجبة بكتابتك، هل يمكن أن نصير أصدقاء.
٢ – بعد أيام قليلة، صباحا في شقته، كانت ترغب في تدشين صداقتها، كانت مستعدة لذلك حتى آخر قطعة، لكنه خشي من أن تكون بنتا وأن ذلك ربما يكون فخا.

٣ – بمدينة الزقازيق، ظهرا، بشقتها المؤجرة بحي شعبي بعيد، ظلا يتجولان بالمدينة نهارا كاملا بعد مرورها على كلية الآداب، حيث تجهز دبلومتها في الإعلام، جلس في كافيتيريا على النهر، وقرأ لها قصة جديدة وشربا شايا، وأكلا سندوتشات كفتة بوسط البلد، حكت له عن صديقة لها تقيم مع طبيب منذ سنة بدون زواج ورفضها الإقامة معها بالرغم من كونها صديقة قديمة لها، وتسكن في أكثر أحياء المدينة رقيا، يذكر أنهما وهما ذاهبان إلى شقتها البعيدة، كان هناك مزلقان سكة حديد، وشارع طويل جدا وضيق مكدس بالبشر، ثم شوارع فرعية ضيقة تؤدي إلى منطقة ريفية، كانت تتقدمه بخطوات، وهما في الطريق اشترت نس كافيه، ومرآة مستطيلة، وسكر، وأمام البيت وسط الحقول، كانت امرأة عجوز تفترش الأرض مصبوغة الشعر بالحناء، جالسة مثل جذع شجرة عجوز، تبيع شيئا ما لأطفال صغار، وعندما ولجت وفاء من باب البيت، وهو وراءها بخطوات، حدقت به المرأة قليلا . ربما قد فهمت.

٤ – عصر القاهرة، فشلها في المرة الأولى في دخول معهد السينما، ظهرهما لشارع الهرم الذي بدا بطوله وصخبه كأنه قرافة، مجموعة العمائر على امتداد الشارع هي شواهد لمقابر فخمة مكدسة بالموتى، يذكر.. في التاكسي انفصلت عنه تماما، هي غائبة بدموعها وجسدها الدافئ الوفير الملتصق به، كانت تهمس باستمرار: مش معقول

.. دا وعدني دا وعدني. ابن الكلب، أنا انتهيت، ثم لسائق التاكسي: على القللي يا أسطى في المرة الثانية كانت قد شحذت السلاح تماما واختارت الرجل المناسب، كان سلاحها جاهزا – وهي ابنة مخلصة لمدينتها " الإسماعيلية " – ولزمنها (الانفتاح) سلاحها البتار، الجسد، وعندما تم قبولها جلسا في " علي بابا " وشربا بيرة، ودخنا، كانت مشتعلة بالفرح والرغبة في الدخول إلى عالم السينما وهي تحمل معها ثمن التذكرة: ما أخذته من أمها ذات الجذور اليونانية، من طول فارع وبياض ساطع، وما أخذته من أبيها الصعيدي من جرأة واقتحام.

٥ – هو لا يتذكر بالضبط، الصور تطفو إلى وعيه في منطقة بين اليقظة والحلم وهي تغوص في بركة استخدامها لسلاحها في نسج شبكة علاقات مع أساتذة في المعهد وخارجه، تغوص وتغوص حتى أنها ذات مساء – في علي بابا – التصقت به، كانت مجهدة ومبذولة وقالت: تعرف.. أنا السنتين إللى قعدتهم في مصر، في المعهد، حاسة دايما إن جسمي وسخ، دايما، رغم إني بستحمى كتير خالص، كل يوم، وبتليف والله حتى في عز البرد، المرات الوحيدة اللي بشوفك فيها، لما بتيجي يعني، هي اللي بحس فيها إن جسمي نضيف، اقتربت أكثر ونظرت إليه بعينين رائعتين مبللتين بالدموع
قربك مني بيحميني، بيطهر جسمي. يتذكر جيدا أنه قال لها: يمكن بيطهر روحك، ويتذكر كذلك بأنها كانت شاحبة، وكانت الأضواء في علي بابا شاحبة أيضا، وميدان التحرير – تحتهما – يدب بالوحوش. إذن فلنتركه بعد أن أغلقت سماعة الهاتف في وجهه بعنف، يسير في شارع السلطان حسين بالإفرنجي في وسط المدينة، بعد أن خرج من بيته وهو يستمرئ التداعي، وتراكم الصور، ولأنه ليس " كمال عبد الجواد " ولا هو من الذين يبكون على الأطلال أخذت خطواته تنتظم، وأخذ يتأمل الأشجار المزروعة في منتصف الشارع بانبهار كأنه يراها للمرة الأولى، حتى أنه عندما مر على بيت جدتها اليونانية.. وفندق " نفرتا ري " الذي قضيا به أمسيات عديدة، أخذ يدندن بأغنية قديمة، علا صوته مما لفت أنظار المارة القليلين في الشارع إليه، ولنتركه يدندن كيفما شاء، ويمتص صدمة إنهاء العلاقة بالطريقة التي يراها، فهو، المثقف العجوز لديه القدرة على فعل ذلك. المشكلة الحقيقية هي أنه قد يكون من غير الملائم ترك هموم الوطن في هذا الوقت الذي يتفتت فيه، والكتابة عن هذين الفأرين وعلاقتهما التي انتهت نهاية لا نستطيع القول بأنها مأساوية بقدر ما هي نهاية سيئة.ولكن ذلك قد يكون مبررا لسببين أولهما أن هذه الفأرة والتي أسميناها " وفاء هاشم " هي نتيجة طبيعية لهذا التفتت، فتحقيق الأهداف

عبر بوابة الجسد يؤدي بالحتم إلى تشيؤ الجسم وتشوه الـــروح، وثانيهما هو لجوء - الفأر العجوز - ولــنفس الأســباب إلـــى محاولة نسيان هذا التفتت في علاقـــات مشـــوهة مـــع فتيـــات صغيرات شبه داعرات.

الجزء الثاني

ما لم تقله الحقوقية

(١)

تقبلين من ناحية البحر في هرولتك الجميلة، مثل لص مشاعر محترف تدخلين في وأنا مرتقب في ذلك المقهى الصغير المطل على الكورنيش: ما أبدع أن أخلع حجبي في وجه العالم.. كنت قد حكيت لي عن القطة التي تحولت إلى امرأة جميلة، وعن الرجل المرسوم فوق جسده طائر الليل المرح وعن استماتتك في الدفاع عن قضيته عندما أخذك إلى فراشه وخلع كامل ملابسه لكي يريك الطيور التي رسموها فوق جسده ، وعندما حدثتك في التليفون بعدها كنت قد قلت لك بأنني سأكتب عما لم تقله الحقوقية . كنت في الواقع أكذب عليك . هل كنت قد أحببتك وقتها . كتبت بأن عينيك السوداوين هما البابان الوحيدان المفتوحان لي للدخول إلى جهنم . وأن علي أن أبادر بالدخول لو رغبت في صنع الرواية التي حدثتك عنها . من أقفل كل الأبواب فجأة . هل هو البحر أم جسدك الذي يشبه سلحفاة تتصخر فور ملامستها للآخر . دائما ما اقتحمني إحساس بأنك وريثة أصيلة لمدينتك الهيلينية الفظيعة . لماذا أنت ضد التورط دائما . هل قلت بأن الرب كان سكندريا بالتأكيد لأنه اختصك بتلك الموهبة . ولماذا أخذت نشوى تحكي لي مأساتها فجأة ونحن جالسون في" الكريستال" كنت أنت لا تصغين بالتأكيد وهو تثرثر عن الحجاب وعن الكبت الجنسي والفقر والمستنقع الذي وجدت نفسها فيه كنت أنصت إليها لكنني أتأملك . امرأة سكندرية الوهج تتأهب للانطلاق ناحية البحر . سؤال شخصي معلق في أفقي لا أرده . سؤال أم إجابة . وكنت أتمكن من مد يدي عبر المنضدة الرخام الصغيرة وأمسك بها جسدك ، أفركه بين راحتي حتى يصير ناعما مثل بودرة وأضعه في كوب الماء الفارغ أمامي وأشربه ثم أدخن البلمونت . لماذا حكيت لي في تلك اللحظة عن "مارك" . هل هو التميمة التي منعتك من

الولوج أو هو المحارة التي سوف تدخلين فيها أيتها السلحفاة هل أنا قد كنت أحببتك أصلا . لماذا كان البحر مفاجأة ؟ وظهور " ميليسا " المباغت من ناحية شارع طيبة . تأتي في هرولة شبيهة بهرولتك . هاربة من مستر " داريل " ومن اليهودي العجوز . تأتي وتخلع فراءها الذي تلبسه فوق اللحم وتجلس عارية مثلما ولدتها أمها فوق رجلي . ثم تبدأ في الغناء . وأنت تنظرين إلى في صمت مؤقت ، لماذا تشبهين " ميليسا " إلى هذا الحد ؟ هل كل نساء الإسكندرية لهن هذا الوجع القاسي ؟ هذا الحضور المرهق لروحي عندما يهرولن قادمات من المتوسط ؟

أنت ساكنة مازلت ، ونشوى مازالت تثرثر عن الحرس الجامعي وعن ذلك الشرطي الذي يضطهدها لأنها منعته بقسوة من مغازلة إحدى زميلاتها . تمد ذراعها القصيرة داخل علبة البلمونت الفاغرة فاها مثل حيوان مفترس ، أشعلها لها . ثم يستقر كفها الأسمر الضئيل في كفي . تكمل : الضابط الشرموط كان يضع يده فوق مؤخرة زميلتي كأنه في غرفة نوم . فقالت له أبعد يدك لو سمحت . أرجوك. كانت مؤدبة لكني صرخت به : احترم نفسك يا ابن الوسخة . هات الكرنيه ، في داهية بكل شيء .انتبهت أنت فجأة وسحبت كفها من كفي فابتسمت تلك الشيطانة الصغيرة وقالت لك: مش واخده بالي . بعدها ونحن سائران في " صفية زغلول " متوجهان إلى " الإليت " تمكنت من القبض على كفك ، كنت في الحقيقة أقبض على عالمك الدسم . حيث تركض قصائد النثر قاصدة الطلوع . وعندما أمسكت كفك في عنف وقبضت عليه فجأة كنت أقبض بالضبط على موهبتك المشرقة . هذا الشيء الذي وضعه الله فيك مثل اسطوانة من الذهب . هل لذلك علاقة بالسواد الذائب في عينيك مثل جدل لا ينتهي بين فصائل الظلمة .لماذا تكون القصيدة تتمة لجسدك المهرول . مثل ذراع زائدة أو نهد يقفز تحت قميصك الجينز الكاكي الذي رأيتك تلبسينه في المرة الأولى . أعرف أن سماء الإسكندرية زرقاء فعلا . ولا تحتاج لأن تدهنيها بالأزرق. المتوسط الذي يحتاج إلى عنايتك مثلما أحتاج أنا إلى لحمك لكي

أصنع روايتي التي حدثتك عنها . مهلا أيتها السلحفاة : لماذا يفضل "مارك " السير في شارع الفراعنة ..
كنت قد لاحظت بالطبع أنك قد انتزعت الإيشارب وبان شعرك الأسود منطلقا فرحا بحريته ولاحظت أنت أنني أنظر إليه : حاربت من أجل ذلك . تصور . أمي . – التي تمنيت ذات قصيدة أن يمسخها الله ساعة حائط – صرخت فيّ وأنا نازلة ، وصرخت جدتي وجدة جدتي : لماذا تفردين شعرك يا قليلة الحياء ؟ عوضي على الله . وكنت أنا كففت عن محاولة لمه في قبضتي من الخلف عندما بدأت أنت في حكاية الرجل الذي جاءك إلى المكتب وهو يكاد يبكي : في عرضك يا أستاذة ... لقد سلبوني أعز ما أملك .. عصارة ظهري .. كنا قد اتفقنا أنا وأنت على أن نسميه " طائر الليل المرح " ثم قمت أنت بتقليده : كنا في الصباح .. في وضح النهار .. والجو نار بالمدينة. وكانت المرأة مغطاة بالسواد الكامل تحمل طفلا وأغراضا اشترتها من السوق . شاورت لي وكنت غائصا في الكرسي الملتهب للتاكسي ، اندهشت في البداية ثم توقفت . نزلت وفتحت الباب الخلفي فركبت . كنت قد قضيت شهرا كاملا و بالكاد أعرف شوارع المدينة ، وعندما وصلت إلى البيت أوهمتني أنها لا تستطيع التصرف . أنا أخاف نساء هذه المملكة مما سمعته من رفاقي المصريين . السائقون البنجال والهنود حكوا لي حكايات يشيب لها شعر الرأس ، لكنني قلت أنا متدين فلأساعد المرأة حملت الأغراض وهي حملت الولد، وعلى الباب هممت بالرجوع لكنها استوقفتني . رجتني أن أحمل لها الأغراض إلى الداخل فتوكلت على الله . عندما سمعت الباب يغلق ، اختفى الطفل فجأة ووجدتها أمامي عارية تماما وهي تأمرني أن أخلع : اخلع و إلا .. كنت مرعوبا فقلت لها لا أستطيع أن أفعل ذلك وأنا خائف ، فصرخت فيّ : إيش بيك يا رجال .. ما تخلع . فخلعت . رشت فوق ذكري إسبراي غريب فوجدته فجأة قد اشتد . والله يا أستاذة ، في لحظة واحدة صار وتدا . ولم تكتف بنت القحبة بنفسها ، عزمت جاراتها عليّ ، الغرفة امتلأت بهن

يا أستاذة حتى أنني ظللت أعمل ثلاث ساعات متواصلة . والله يا أستاذة كن يسحبن من ظهري ماء الحياة ويرسمن على ظهري هذه الطيور ، بعدها ظللت شهرا بالمستشفى ثم رجعت فورا .

أنا عايز حقي يا أستاذة . هل ستساعدينني ؟

هل قمت بمساعدته أيتها السلحفاة ؟ عندما أخذك إلى فراشه لكي يريك كيف قامت نسوة المملكة بالرسم على جسده بالحناء . ولماذا قامت نشوى بهذا الانتحار الدعائي ، شاربة سم الفأر في الكريستال في نفس اللحظة التي هجم فيها طائر " الليل الحزين " على ذلك الصيدلي في شارع النبي دانيال طالبا منه أن يعطيه ذلك الاسبراي الذي يجهل حتى اسمه صارخا فيه : أنا أريده وتدا ، وكاد يقتله عندما أخذوه إلى قسم الشرطة وأنا أراك وأنت تحاولين دون فائدة أن تشرحي للضابط ـ إياه ـ معنى ذلك . أسمعك بالكاد وأنت تطلبين منه في ثورة أن يعري جسده حتى يشاهد الجميع ـ أولاد الكلب ـ تلك الطيور . ثم وأنت تنزعين قميصه في غل كأن الإسكندرية كلها تدفعك .كأن ذلك الغشاء المطاطي والذي أسميته بالتامور له علاقة بالأمر . هاهي كتلة شعرك الأسود التي لم تعتد حريتها بعد تقف بيني وبين البحر ، بيني وبين مارك . هاهما عيناك النفاذتان تنفتحان لي وتقولان في هدوء : ادخل إلى جهنم .. لماذا لك تلك العيون الجميلة أيتها السلحفاة ؟ هاتان المنارتان تضيئان ظلمتي . تدغدغان جسدي ونحن في " الإيليت " حيث دنت الساعة . وحيث ذلك القفص الزجاجي – في صفية زغلول – يحدق بي المارة السائرون في الشارع يبصون كأننا في حديقة حيوان . أنا وأنت كائنات بحرية والبيرة قد حفرت في جسدي سريرا يحتويك . وغشاءك المطاطي غير قادر للصمود أمام حرارة الوتد . وتهمسين أنت في لغة سكندرية خالصة آه ..آه .. فأحترق – وأنا المحصن ضد النار – ضد الورود لماذا أهديتني تلك الوردة الجميلة في الكريستال ؟ لماذا انتزعت هذا القلب الصغير المعلق فوقها وأنت تخبرينني بأن البائع الشرير هو الذي وضعه فأخبرك بأن تتريثي

قليلا فيما يتعلق " بمارك " هل كنت أخدعك حين أخبرتك في محاضرة طويلة و مملة عن دور الاستشراق
في الثقافة العربية الإسلامية ، وعلى ضرورة ألا تجعلي افتتانك بالحرية الشخصية وتدمير التراث يدفعانك إلى أول متشرد آري يحوم حولك . بالرغم من كل ذلك أخذت تحكين لي كيف حملتم " نشوى " من المقهى بعد تناولها للسم ، كيف أخذت تضـربينها بعنف في سيارة الإسعاف كي تفرغ ما في جوفها ، ثم تصمتين فجأة : لماذا حاولت هذه الزهرة الجميلة أن تمـوت ؟ ولا أرد ، يطبق البحر فوق جسدي حين تندفعين فجأة فـي إلقـاء نكاتـك الفاجرة . من أين حصلت على تلك الجرأة وعلى ذلـك النـزق حتى عندما بدأوا في الحضور والالتفاف حولنا في " الإيليـت " في البداية جاء مستر " داريل " وهو يسحب " ميليسا " الرقيقـة وكأنه يسحب فراشة فقلت لك : انظري .. إنها تشبهك تماما . ثم جاءت نشوى وهي تحمل " طائر الليل المرح " فوق كفهـا ، كانت مجهدة وصفراء مثل علامة استفهام ، جلست إلى جانبي ، فقط عندما حلّ " مارك " توقفت عن إلقاء نكاتك ، جاء بشـعره الذهبي وقامته الفارعة . هل شربنا كثيرا ؟ هل شـربنا كثيـرا أيتها السلحفاة ؟
بالمناسبة لقد تمكنت من الحصول على اسم الاسـبراي الـذي يخص طائر الليل المرح – إن كنت – أيتها السلحفاة في حاجـة إليه .

(٢)

هل أنا مازلت في الإسكندرية ؟ لا بد ، فهذه رائحة اليود والأمونيا تهاجمني ، إنني أذكر : كنت فـي البهـو الجميـل – بالفيلا المتواضعة باستانلي – كنا وحدنا . هل كنت أنت أيتهـا الحقوقية أم كانت أميمة . لا بد أنها كانت أميمة لأني لم أكن قد عرفتك بعد .

كنا وحدنا .. الصالة طويلة عالية السقف ومهيبة، وتلك الكنبة الأنيقة أمام التليفزيون ، تترك يدي تتحرك بحرية ، أذكر : أدلك سلسة ظهرها في ألم وهي ساكتة : لست قادرة على الاستمرار.. لست قادرة .. ثم تنخرط في البكاء : أرجوك لا تفهمني خطأ.

أتسلل بعد الواحدة والنصف صباحا ، أذكر : أنني عندما وصلت إلى " المندرة " نظر إليّ زميل الغرفة مذهولا : كأنك ميت.. كأنك ميت .. كنت أصرخ فيه : ماذا فعلت لهذه المدينة ؟ .. طعنتان في القلب . لا أدري لماذا قلت له هذا أيتها السلحفاة لأنها كانت طعنة واحدة لكنني قلت " طعنتان " . هل كانت الإسكندرية تفتح لي قلبها النيئ لتخبرني ؟ أذكر : جهاز التسجيل الأسود الفخم يزعق بهمجية : " الفراولة بتاع الفراولة ... بتاع الفراولة ... بتاع الفراولة .." والولد المتخلف عار إلا من مايوه أزرق يرقص في الغرفة كأنه مصاب بلوثة وهو يقول : كأنك ميت .. كأنك ميت .. ويستمر في الرقص . كان ميدان ، وكشك سجائر قريب من البحر . أترنح لحظة ثم أكاد أسقط ، يسرع إلي رجل ويسندني ، كذلك يسرع بائع الكشك ويفتح زجاجة كوكاكولا ، أشرب فأتماسك قليلا ، ثم يوقف لي سيارة تاكسي وأهمس للسائق : المندرة .. ثم " الفراولة بتاع الفراولة ... بتاع الفراولة .. بتاع الفراولة " .

أين كنت في هذه اللحظة أيتها السلحفاة ؟ هل كنت في بطن أمك تحاولين الخروج مثل قصيدة ؟ أم كنت تمسحين شوارع " باكوس " بعينيك السوداوين باحثة عن الكلمات التي سوف تطلقينها فيما بعد مثل سهام مسمومة ؟ أعرف . كنت تتعطرين مثل وردة للدخول في إحدى قصائد " كفافيس " أو تتهيأين لكونك " مليسا " التي سوف يعشقها داريل وأنت تشرحين لي كيف أصل إلى مكتبك ، : بعد الكوبري مباشرة تنزل .. أول شارع على اليمين .. ثاني دور . سأجدك جالسة مثل راهبة . المكتب غرفة صغيرة وجميلة والحمام في المواجهة . أغلق الباب ، فتهمسين لي بأنك – نظرا للواقع الموضوعي – تتركين الباب

مفتوحا ، فأفتحه . وتجلسين خلف المكتب : إنني أرغب في الجلوس إلى جانبك . هل كنت ترغبين حقا أيتها السلحفاة ؟ مثانتي ممتلئة والحمام مغر . كنت تضحكين وأنت تقولين شيئا عن بيت الراحة . لماذا أحببت مكتبك إلى هذا الحد ؟ وأنا مستلق على الفوتيه الأزرق الباهت قبالتك ، وصوت فيروز يشحن المكان ببطء .. والإضاءة خافتة . وأنا أفكر لماذا كان لجسدك الضئيل كل هذا الحضور وأنت تتحركين بتؤدة تعدين لي كوب " النس كافيه " والسخان الصغير يضيء وعيناك تضيئان ، هل قرأت لك ساعتها جزءا من الحقوقية ؟ أذكر : التاكسي – الذي أوقفه لي رجل الكشك – يخترق الكورنيش والبحر غاضب من شيء ما . هل كنت ميتا إلى هذا الحد ؟ لأن سائق التاكسي كان ينظر إليّ مثلما تنظرين إلى شخص ميت وهو يقول : مالك يا أستاذ فيه حاجة ؟ لا بد أن في الأمر امرأة. هل قلت له أن أميمة ليست امرأة وإنما طالبة مفعوصة في نهائي طب ؟ . آه .. تصور .. بنت مفعوصة ، وتفعل بك هكذا ! كلهن كذلك يا أستاذ انظر .. فك أزرار قميصه فلمحت مرسوما على صدره نقوش في لون الحناء .

كانت أضواء الشارع تسقط عليها فجأة فتدب فيها الروح لحظة ثم تختفي . والتاكسي يسير في انسيابية فوق الكورنيش : سأحكي لك القصة فيما بعد . أشعر أننا سوف نصير أصدقاء . المهم الآن أن نتماسك . في داهية كل نساء العالم . كلهن بنات لبوة . لماذا أصر " النبوي" أن يعطيني ورقة بها اسمه وعنوانه في أبو بكر الصديق المتفرع من شارع السوق بباكوس عندما وصلنا إلى المندرة ؟لماذا رفض أن يتقاضى مليما واحدا نظير توصيله لي وهو يشد على يدي ؟ هل كنت ميتا إلى هذا الحد ؟ ثم تقومين أنت بإغلاق باب المكتب هامسة : فليذهب الواقع الموضوعي في داهية ، وتسكتين فيروز وكنت أنا أسكت وشيش السخان . ما هذه السكينة وما هذا الهدوء ؟ لماذا ترد روحي إلى جسدي مثل تيار ؟

ربما سمعتك تقولين :

" كما أن العلوم الرياضية تضع بين يدي علماء الرياضة مسائل جديدة تدفعهم إلى رموز جديدة فكذا المطالب المتجددة في المجتمع وفيما وراء الطبيعة تدفع الفنان إلى البحث عن لغة جديدة وعن وسائل فنية جديدة ."

وربما قلت لك بأن " سارتر " عندما كتب ذلك كانت عينه عليك أنت . كان يعرف بأن البحر سوف يقذف بك فجأة في زمن قادم وأنك سوف تملأين سماء الإسكندرية بالرموز الجديدة ، لكنه – سارتر – لم يكن يعرف بالتأكيد بأنك سوف تتركين المكتب وتأتين تجلسين إلى جانبي بهدوء . تضعين يدك الدافئة فوق خدي ، تحسين نبضي : الله مالك .. أنت أصفر قوي ، كأنك ميت . أنا أذكر : كان الهدوء وكانت السكينة . وبقايا من صوت فيروز في الغرفة . أتمدد فوق الفوتيه ، وتتمددين إلى جواري وعندما حصل كل منا على الآخر كانت الروح قد ردت إلى جسدي كاملة غير منقوصة . وكان صوت ميكروفون الفجر يمزق كل هذا السكون : صباح الخير أيتها السلحفاة ، فتهمسين في خبث : سلحفاة إيه بأه .. صوتك وهو يتسلل إلى أذني ، عيناك وهما تتفتحان ، هرولتك الجميلة ، وأنت تعيدين ترتيب المكتب . لماذا أشعر بالروح وهي تسري ، هل الإسكندرية جميلة دائما هكذا في الفجر ؟ كان علي بأن أغادر .

أخرجت الورقة من جيبي : ٦٣ شارع أبو بكر الصديق المتفرع من شارع السوق ،

لا بد أن " النبوي " نائم الآن ، كان الشارع خاليا تقريبا ، وأخذت أبحث في أرقام العمائر ٦١ ، ثم يافطة صغيرة أسفل ٦٣ – النبوي همام – منزل صغير مكون من طابق واحد .

ترددت كثيرا قبل أن أضغط الجرس ، ثم فتحت لي امرأة سمينة بيضاء ، كانت مندهشة قليلا : النبوي موجود ؟ ورايته يقف خلفها مباشرة : نعم موجود يا أستاذ .. اتفضل ..

وسعي يا ولية . أزاح المرأة قليلا في عنف ، أجلسني فوق كنبة في الصالة ، كان يلبس الفانلة الداخلية وبنطلون بيجاما . قال : لحظة واحدة .. ثم اختفى فجأة ، جلست بالصالة المزدحمة

بالأشياء بينما أرتب العبارات التي سوف أقولها ، لماذا هجمت على بيته هكذا في الفجر ؟ واكتشفت بأنني لا أجد سببا معقولا لذلك .
ربما كانت تلك الطيور المرسومة فوق جسده هي التي تشدني ، عندما ظهر فجأة وقفت دون أن أشعر وقلت : أنا آسف .. الوقت غير مناسب بالمرة لكن ..
ولا لكن ولا حاجة يا أستاذ .. كنت أشعر بأنك ستأتي . تصدق بالله .. أني انتظرتك ليلة امبارح .
كان قد ارتدى قميصا أبيض فوق بنطلون البيجاما فيما راح يكمل : كل من يرى هذه الطيور لا بد أن يأتي .. هي في الحقيقة ليست طيورا .. انظر . رفع القميص فبانت بطنه بالكامل ، فوق ظهره أيضا عندما استدار . لم تكن طيورا بالفعل . كانت أعضاء ذكورة و أعضاء أنوثة مرسومة بعناية وكأن فنانا محترفا قد حفرها .
كانت مرسومة بترتيب غريب في متتالية هندسية بأحجام مختلفة .. فوق البطن والظهر فقط . أما تلك المرسومة فوق الكتفين والساعدين فكانت طيورا بالفعل ، كنت لاحظت ذلك عندما نبهني " النبوي " : هذه ليست طيورا أيضا إنها بلابل . كن يرسمنها وهن يرددن : هذه بلابل الحب أيها المصري . هل تريد ريالات .. دولارات ؟ وكن يضحكن بينما ظهري يا أستاذ يؤلمني كأن ساقية تشفط منه السائل . ثم رمينني أمام البيت والفاجرة التي اصطادتني تحلف بشرفها إن رأتني مرة ثانية في الحي كله سوف تسلمني إلى من لا يرحم. كان قد ارتدى قميصه مرة ثانية ، وسمعت المرأة تتكلم من الداخل : عايز حاجة يا سي نبوي ؟ جاء الصوت مغايرا ، أنثويا جدا كأنها تتكلم من بطنها ، به غنجة خفيفة ربما لأنها مستيقظة من النوم توا : نجيب شاي ؟ لم يرد " النبوي " ، كان يسترد ذاته من المملكة . ثم أكمل أنت لا تعرفهم يا أستاذ .. يهرولون دائما في الشوارع في أوقات الصلاة يهشون الناس كالذباب .. آه لو حدث

واضطهدوك .. ستقطع رأسك بالسيف في ساحة المسجد الكبير بعد صلاة الجمعة .. القصاص .. القصاص .
كنت لحظتها مازلت في مسامي . في شفتي طعم أعلى العنـق عند منبت الشعر . وفي قلبي نهدك الفتي وهو منتصب . وفـي كفي استدارة الردف المعجز عندما تهمسـين بـالآه سـكندرية خالصة فتسري الكهرباء وتتفتت الخلايا ويصير الجسـد مهيـأ لاستقبال الروح التائهة ، بينما جسدك على أهبة الاستعداد أيضا لامتصاص السوائل الدافئة البيضاء .
كنت ملتصقة بي وأنا جالس في هدوء أستمع إلى النبوي وهـو يحكي عن حقه الضائع ، تفتحت حواسي فجأة عندما ذكر اسمك: بعد رجوعي وكلت محامية معرفة .. مكتبها قريب من هنـا .. شرحت لها القصة وقلت لها عايز حقي .
لماذا تستيقظ اللحظة هكذا أو تقف في حلقي ؟ ولماذا يلح علـي القول : عندما تحب امرأة في مدينة يصير لها طعم آخر .
هل أنت الآن هي الإسكندرية ؟ لماذا كل هذا الشبق والموهبـة الأنثوية التي ربما تفوق الشعر في بدنك ؟ ولماذا تسيل في دمي الآن – محطة الرمل وصفية زغلول وتمثال سعد المواجه للبحر والنبي دانيال والكريستال و النادي النوبي – مثل عصارة يقذفها المتوسط في شراييني . كنت قد قلت لي : سـوف أراك فـي العاشرة ، عندي محكمة اليوم . سأراك فـي الكريسـتال لمـدة نصف ساعة . وربنا يسهل .. خلاص .. لماذا تخرج "خلاص" هذه وكأنها قطرات شهد في فمي ؟
ولماذا تعطي أحبالك الصوتية للغة مذاقا خاصا ؟ ونكهـة هـي الفجر الجميل و الدعوة القاسية لجنة مفارقة و يجيؤني صوت " النبوي " مثل نشاز : عايز حقي .. مكتبها قريب من هنا جدا ، هي طيبة وخدومة ، بنت بلد بصحيح .. قالت سـأحاول . ثـم يسألني : حتقدر تعمل حاجة ؟
ثم سمعته يصرخ فجأة في المرأة البيضاء التي فتحت لي الباب . كانت واقفة أمام الباب مثل جملة زائدة . ترتدي زي الخـروج وتحمل حقيبة يد جلدية سمراء وكبيرة نسبيا وغير مقفلة جيدا ،

يطل منها طرف قميص النوم التي كانت تلبسه حين رأيتها في دخولي : أنا ماشية . وهي تنظر إلي أخذت في تسبيل عينيها المكحولتين فبدت مثل كلب بحر ضخم يسترحم المتفرجين . كان يقول لها : غوري .. غوري مع السلامة . فيما راح يغمز لي بعينيه : امرأة شرموطة تأتي عندما لا تجد مكانا تنام فيه . أعرفها منذ فترة طويلة . كانت زميلة لأختي الوحيدة " نشوى " لكنها انحرفت .

بعد أن خرجت المرأة تجسد الفراغ وتمكنت من رؤية " النبوي " ربما للمرة الأولى .

في الخامسة والثلاثين تقريبا ، ممتلئ الجسم ، لا هو بالطويل ولا بالقصير . له شارب كث و أسود ربما على حساب صلعته البارزة . عيناه مستديرتان مثل عيني حية ، وله أذنان كبيرتان بلون مختلف عن لون بشرته المائل إلى الدكنة ، تكوينه الذي يوحي بالقوة ثابتا ، يعطيه شكلا لائقا إلى حد كبير فيما عدا أنفه الطويل قليلا والمدبب كمنقار لطائر جارح . غير أنه من الممكن أن يدمر كل ذلك إحساس بأن شيئا ما مهتز في ذلك التكوين . كصورة زاهية لكنها غير ثابتة على شاشة . جلس قبالتي فيما راحت عيناي تمسحان الصالة : أجهزة كهربائية عديدة وغير مستعملة . ثم انتزعني صوته مثل لطمة مباغتة : أختي الوحيدة نشوى هي صديقة أيضا لتلك المحامية التي حدثتك عنها . منذ أن مات أبي و على فكرة مات أبي في نفس يوم ولادتها . غريبة يا أستاذ مش كده ؟ غالبا ما تموت الأم ليلة ولادة الطفل وليس الأب . القدر يلعب معي لعبة غريبة ، المهم مات الرجل وترك لي زوجته والطفلة وهذا البيت . تزوجت أمي بعد عام واحد وذهبت لتعيش مع زوجها في " محرم بك " و أخذت معها الطفلة . تمكنت أنا من استكمال البيت لكن " نشوى " تقف في زوري دائما . هي بنت قوية طول عمرها ولسانها أطول منها وجلابة مشاكل . لماذا عندما قال " نشوى " أحسست بأنك حاضرة ، كأن الضوء الذي يدخل من النافذة أو الهواء المشبع

برائحة البحر . هل نحن نائمان الآن فوق الفوتيه الأزرق بمكتبك وأنت تهمسين :
حاسب .. حاسب .. بهدوء .. بهدوء.
لماذا هذه اللحظة ممتدة ومطلقة ونهائية كأنها الدهر . ولماذا غاب عني صوت " النبوي " فجأة هكذا . وما هذه البلابل التي تقفز من جسده وتملأ الصالة ، تقفز من الساعدين وتحلق ، تهوم وتزأر كطائرة نفاثة تحوم حول الهدف . تحط فوق الأجهزة العديدة بالصالة ثم تصرخ مثل منبه ضخم : سوف تراها في العاشرة ، في مقهى الكريستال .. في العاشرة .. في العاشرة .

(٣)

تدير ظهرها له ، ووجهها للبحر . تزعجه أصوات الماء في هديرها وصخبها وهي تضرب الشاطئ بعنف ، و يأتي صوتها واهنا : لازم تعرف يعني ؟ فلا يرد .
أحجار القلعة متراصة في صمت وهي تستقبل الزبد و ترده مثل جمل يجتر في هدوء . فقال : يعني .. هي قد التفتت إليه الآن ، أحكمت الإيشارب ، تضم قبضتها و كأنها ترغب في أن تضرب أحدا لكنها تقول في هدوء : كان عنده عجز ... عجز جنسي .. استريحت دلوقتي ؟
وكانوا يحومون حولهما ، رجال بأسمال بالية يحملون صناديق خشبية مزوقة بداخلها سجائر و مستطيلات من البسكويت المغلف بورق أحمر ، كان يلمع ، بينما السجائر في أفواههم تتوهج رغم الشبورة التي تصنعها نتف الأمواج وهي تقفز فوق الشاطئ .
فقال : ياه . كانت ترغب في الجلوس ، نظرت إلى قاعدة النافذة الضخمة و نظرت إليه فقال : آه .. كانت قاعدة مرتفعة جدا وهي القصيرة فحملها من تحت الذراعين وهي تحاول أن تبعد جسدها عن جسده ، لكنها لا بد قد شعرت بتوتره فاحمر وجهها

وهي تجلس . قالت : شهر .. شهران .. سنة ، لكن لا فائدة ، كان يبكي ويدفن وجهه في الحائط بعد كل فشل .. ثم يصير عصبيا جدا ، و صعب التفاهم معه ، لم أتمكن من فعل شيء و أنا الطبيبة أعرف كل شيء تصور .. فعلت أشياء فظيعة أحسست بعدها بالخجل .. و عندما شعرت بأن لا فائدة قلت له طلقني ؟

قالت ذلك و كأنها تفعله الآن . كانت تشاور بذراعيها ناحية البحر و قد اضطرت إلى خلع الإيشارب فأضاء شعرها الأسود الكثيف وهو يتطاير في الهواء .

هل أحببته جدا ؟

لا أعرف .. كنت أنت غارقا في كتبك وبوهيميتك و كتابتك التي بلا معنى . لم تفكر أبدا فيما كنت أحتاجه ، لم تفهمني أبدا ، ابتعدت في الوقت الذي تقدم هو فيه ، قال سنتزوج و سنسافر إلى اليونان بعد سنة أعطيت له العلبة كاملة بذهبها ، و عدت ، أنت السبب .

كانوا يقتربون الآن ، هؤلاء الرجال الذين يحملون الصناديق ، يحومون حولهما ثم يذهبون . هي جالسة فوق قاعدة نافذة القلعة الحجرية وهو واقف و ظهره للبحر ، رائحة اليود وزفارة السمك تحوم أيضا ، قالت : صندوق جميل من أندر أنواع الخشب ، مشغولة حوافه بالأرابيسك بحجم الكف ، وضعت الدبلتين بداخله و أعطيته له . كنا على الشاطئ في الناحية الأخرى بالضبط من هنا ، فأمسك الصندوق قليلا بين يديه وقذفه في البحر .

هل كان يحبك جدا ؟

لا أعرف . كان وسيما و متعجلا ، تزوجنا بسرعة و كنت أنت تبتعد .

شعرها أسود و كث ، يكون هالات من الضوء وسط الضباب فيقترب قليلا و يلامس ركبتيها وهي تتكمش حين يفجؤها الماء في رشات متتابعة . قال لي سأشفى عندما نعود إلى مصر . فقلت له طلقني الآن .

هو يقترب أكثر. أحاطت رأسه بكفيها ، وهم يحومون حولهما ، مثل كتيبة من الحرس الخاص ، و بالرغم من كونهم كانوا يرغبون في بيع بضاعتهم إلا أن عيونهم كانت تحوم أيضا ، حتى أنه عندما خرج الصندوق من الماء كانت عيونهم تترقبه ، ظل الموج يدفعه – الصندوق – في مده وجزره ، يمكث لحظات قليلة فوق الرمال ثم يعود إلى الماء ، إلى أن كانت الموجة التي قذفته فوق الشاطئ تماما ، فجلس تحت الشمس كسمكة هدتها رحلة الإياب ، و خشبه الأصيل المبلل بالماء يلمع، ثم تقدم كبيرهم نحوه و هم يتبعونه ، كانوا يتبعونه في خط مستقيم ، بعد أن وضع كل منهم بضاعته فوق سور الكورنيش ، بنظام أخذوا يتجهون نحوهما ، كانت هي جالسة مازالت فوق النافذة، و هو يضع رأسه في حجرها ناظرا إلى عينيها مباشرة، العجوز الذي يتقدم الطابور يحمل الصندوق ويحبو صوبهما ، نزلت هي من النافذة ، كذلك ساعدها إلا أنها لم تبعد جسدها عنه أثناء ذلك ، التصقت به حين تقدم العجوز نحوهما بالصندوق ،عندئذ فتحته وأخذت تتأمل الدبلتين ، تقدم هو نحوها في ترقب – بعد أن غادرهما الرجال – وقرأ اسمها منقوشا في باطن إحدى الدبلتين ، كانت تتأوه و هي تبتسم ، إلا أنها قد أمسكت بإصبعه و وضعت الدبلة ، كذلك وضعت الصندوق فوق قاعدة النافذة المرتفعة ، بينما البحر يصدر أصواتا عالية و الموج يشتد و الزبد يتزايد بعنف و الصندوق قابع في مكانه – فوق القاعدة – لا يريم .

الجزء الثالث.

إمكانية طرح الأطفال.

ها هو البحر.

في الصباح الباكر ، وعندما ركبت قطار الإسكندرية وكان مزدحما قليلا رغبت في أن أشعل سيجارة. لكنني عندما شرعت في تدخينها وضعت الطرف المشتعل في فمي فاحترقت شفتي وحزنت لأنني لم أتمكن من تقبيل أميمة (المفروض أنها خطيبتي مثلما يقول جدي دائما والتي لم أرها منذ سنوات) عندما أراها في العشية . في العصر عندما وصلت إلى المعسكر – في المندرة – قالو لي اخدم نفسك بنفسك لكنني عندما هممت بطهو طعام الغداء أحرقت يدي لأن أمي هي التي كانت تفعل لي ذلك فحزنت لأنني لن أتمكن من مداعبة شعر أميمة الجميل عند لقياها . قبيل المساء وبينما كنت أستعد للذهاب إلى البيت أميمة – في ستانلي – وقع لوح من خشب السرير فوق قدمي فتورمت فحزنت أيضا لأنني لن أتمكن من التمشية مع أميمة في شارع الكورنيش عندما نذهب إلى تلك السينما في محطة الرمل والتي لا أتذكر اسمها والتي تعرض فيلم " مسافر تحت المطر" وفي المساء المتأخر عندما تمكنت من الوصول إلى – ستانلي – حيث فيلا أميمة فتحت لي مامتها – التي هي امرأة عمي في نفس الوقت – الباب ورحبت بي في دهشة وعندما سألتها عن الأحوال وعن أميمة قالت بدهشة أيضا بأن أميمة قد تزوجت وسافرت منذ أعوام ومصمصت شفتيها وهي تقول مانت عارف . فلم أحزن ولكنني قلت هاهو البحر .

إمكانية طرح الأطفال.

كانوا يتأملونهم في صمت ، الواحد منهم ممتطيا حماره أو جارا بهائمه ثم ينظر ناحية أشجار السرو و الجزورين المكدسة بالأرض الواسعة خلف صهاريج المياه ينظر إلى أعلى حيث الأطفال المعلقين في الأشجار ، ثلاثة من الصبيان وصبية ، ملفوف حول أعناقهم حبل سميك كالحبال التي يجرون بها البهائم ، وأجسادهم تتأرجح في الفراغ . لم تكن الشمس قد أضاءت بعد، وكتل الضباب تلف المبنى الأبيض الباهت لصهاريج المياه والبيوت المجاورة ، ما إن يخرج الرجل من داره يصدمه الفراغ والجثث حتى يمسك الزراعية ويستمر في سيره نحو الغيطان المحيطة ، ثم أن الرجال القاصدين الجامع والنسوة الذاهبات لقضاء حاجتهن وسط الأشجار يلفت نظرهم المشهد فيتأملونه قليلا ، تنظر الواحدة منهن إلى أعلى كأنها عمياء وسط الضباب بينما البول الحار يندفع بين ساقيها صاعدا منه بخار الصباح وكوابيس الليل قد تكون إحداهن زوجة أب لواحد منهم – الأطفال – وربما تتذكر أكياس النايلون التي كان يعلقها نفس الأطفال فوق نفس هذه الأشجار خازنين بها سرقاتهم المتكررة من سوق الخميس ، خضر وفاكهة ولحم وسمك ، أو ربما تستعيد مشهدهم – الأطفال – وهم عرايا تماما – بمن فيهم الطفلة – وهم يستحمون في الترعة ويبعثون بأعضائهم في تبجح ، وهم يهرولون في الغيطان الواسعة عرايا تماما يشوون السمك المسروق ويأكلون اللحم المسروقة والفاكهة المسروقة ، وربما أيضا تتذكر – المرأة – قرار كبار تجار السوق ، لكنها (وبعد الانتهاء من قضاء حاجتها) تقوم ، تقوم وهي تتفادى النظر إلى أعلى ، إلى الأجساد الصغيرة المعلقة والتي تتأرجح في الفراغ.

حزن في حديقة.

اتصلت بي أميمة مثل كل المرات السابقة ليلا ، كنت مكتئبا كعادتي أرقب الكون وهو ينفرط من حولي ، كنت أخاف بالتحديد من أن يعثروا على جثتي ويكتشفوا أن عهدتي ناقصة : مائة امرأة على الأقل كان مكتوبا على جسدي أن يتعرف عليهن، فلنقل حوالي خمسمائة زجاجة بيرة كان من المفترض أن يشربها دمي .. ولنقل كذلك أن طنا من الورق المكتوب كانوا سيكتشفون نقصانه . لكنها قالت بهسيس مغر : هتيجي بكرة مش كدة .. لازم تيجي . ثم أردفت في حنية : نفس المكان ونفس الزمان .. لسة فاكر ؟
فكان علي أن أذهب إلى الحديقة وكان علي أن أقول لنفسي بأنها تأخرت كالعادة وأننا في الساعة الخامسة والأربعين الآن ولم تحضر ، وكان لا بد من انتظارها حيث أنها قادمة من بعيد . جسدها الضئيل منغلق على ذاته ، مقفل ، لم يمس ، وجهها خمري بيضاوي ، أنفها دقيق و مشرئب إلى فوق ، شفتاها رقيقتان مزمومتان كأنهما خطان ضائعان في الأفق ، غابة شعرها الأسود الكثيف مكتفية بذاتها و أيقنت بأنها لا تحترم مواعيدها دائما وبأنني لم أنبهها مرة واحدة لذلك قررت هذه المرة بأن أعلمها بأن لا تتأخر مرة ثانية ، و كانت الحديقة تفتح أبوابها و أنا قد قطعت تذكرتين بجنيه مصري كامل وعندما حضرت " أميمة " دخلنا مباشرة ، في البداية رفضت أن تمسك يدي ، لكنه بعد ذلك أخذت تعبث بعصبية بأصابعها الدقيقة في كفي فقلت لها لقد تأخرت جدا فقالت ببساطة أنا آسفة وقلت لها كذلك أنت جميلة جدا ، فابتسمت وسألت : هل لا زلت تحب فيروز ، فأجبتها بنعم وهكذا دخلنا الحديقة . فأنا أعرف أن دمي هو دمها وأن دمها هو دمي و أننا أبدا لم نجد دمنا معا فنحن لم

نفعل الجنس سويا أبدا ، فقلت لها ذلك بصوت واضح ومحدد و أنا أنظر إليها ، في عينيها، أخذت تنظر إليّ . كانت خائفة ، في عينيها السوداوين المسحوبتين مثل عيون الفراعين ، كمية هائلة من الخوف ، كانت منكمشة فوددت لو أخذتها هكذا أمام كل من في الحديقة ، ونحن في الوسط تماما بهدوء أنزع عنها الإيشارب الأسود الذي كانت قد لفته حول رأسها ، فستانها الخفيف الذي يلفها كاملة ، أعريها تماما بشكل مباغت لكن في هدوء وأحصل عليها و أنا أعرف أنها تعيش في زمن مختلف : أنت تقبعين يا " أميمة " في زمن الصحراء القديم تحاربين بضراوة كل توجسات الجسد ونمنمات الخلق والتكون بينما الشاعرات المهووسات بالجنس و المعرفة يقتحمن عالمك المقفل . هل أنت معي؟ كانت لا تزال خائفة ، تجلس على طرف المقعد الرخامي الأبيض كأنها قوقعة تتطلع إلى العالم برعب تنكمش حين يفجؤها الضوء رابضة في خنوع ذليل لقبضة الإيشارب الأسود الذي يحجب عنها الشمس ، هي في متناولي الآن ، أمد يدي وأمسك يدها ، كفها صغير ككف طفل ، أصابعها باردة لكنها ممتلئة بالرغبة ، في حركتها العصبية الدافقة في كفي مشتاقة للفعل و القبض ، سوف تخرج الآن من الشرنقة و تتحرر فأمد يدي ، هاهو الإيشارب الأسود في قبضتي ، الآن أشعة شمس الحديقة تتخلل غابة شعرها ، وهي ساكنة ، مغلقة ، لكنني قد رأيت ما رأيت : " مئذنة مسجد متلألئة في ظلمة صحراوية ، ساقا امرأة خمرية مشرعان في الهواء ، قرن ثور ضخم شديد السواد طائر مثل سهم ، عملة ورقية من الريالات الجديدة تصغر صغرا خفيفا ، عدد من الفوط الصغيرة تستخدمها النسوة عند الطمث ، وأكياس جلدية ملونة من عوازل الحمل منتفخة تتأرجح بين السماء وبيني ، أسراب من الهجن والغربان و الطائرات النفاثة شديدة السرعة تكون سحابة سوداء طائرة " وهي " أميمة " ربما قد رأت ، لأنها انسحبت إلى خنها في فزع وكنت أنظر إليها في قلق ، و هي تتحول ، كان ذلك عكس المرات السابقة تماما ، كانت إلى جانبي فوق المقعد ، هي نفسها " أميمة " لكنها كانت

تتحول ، كانت تتضاءل حتى أنها صـــارت صـــبارة صـــغيرة صلبة ، صبارة صغيرة صلبة تتغرس في روحي .

ثم أنني قمت وخرجت من الحديقة وحدي .

المغنية الصلعاء.

مع الاعتذار ليوجين يونسكو

هل الأشجار الضخمة الأثيثة التي تحتضن مبنى النادي هي أشجار صفصاف ؟
كانت الأشجار الكبيرة تحط بثقلها فوق المبنى الأبيض فرنسي الطراز ، الهادي ، المكون من دورين يحوطهما حوش كبير هو في ذات الوقت حديقة ترص فيها الطاولات يحيط بكل ذلك سور كبير يفصل النادي عن البنايات المحيطة ، يصل بين الدورين سلم من الخشب البني النظيف دائما.
حين تصعد المرأة قاصدة مكتبها بالدور العلوي يرن صوت كعبي حذائها فوق الخشب ، وهي كذلك تستطيع أن تميز الأصوات الصاعدة إليها عن طريق ذلك الصوت ، صوت ارتطام الأحذية فوق خشب السلم .
هل تعمل هذه المرأة سكرتيرة فقط؟
كانت قد تمكنت وفي مدة وجيزة معتمدة على كونها طويلة وبيضاء وبقليل من الحيل الأنثوية الموروثة بدقة متناهية ، كانت المرأة قد تمكنت من إزاحة منافستها و صارت هي التي "على الحجر " مثلما قلن بعد ذلك، وكانت قد تمكنت من ترحيلهن و الاستحواذ على الآلة الكاتبة و المكتب الصغير و قلب الرجل الكبير.
هل كل عصافير الأرض قادرة علي الغناء ؟
في حين غردت العصافير فوق الأشجار التي تحتضن النادي والمعتقد أنها أشجار صفصاف كانت – تلك المرأة – تدندن بأغنياتها الوحشية و هي تدق فوق الآلة الكاتبة أو تأكل أو تلف شعرها الكستنائي الطويل الخشن في قوقعته بعد أن تفرده متعمدة أن يراها الرجل وهو يمرق داخلا أو خارجا بينما هي – تلك

المرأة – قد تأكدت تماما من أن رفاقها في الخارج – و الـــذين يعشقون مثلها الغناء – قد فشلوا جميعا في رؤية ذلك الكستنائي المبهر من بعيد ، الطويل الذي تفرده على ظهرها فيصل إلـــى الكعبين ، تظل تتأمل الجدائل منفلتة من جوربها فـــي نرجســـية وانبهار كأن ذلك أيقونتها المقدسة ، كأنه كائن حي مستقل ظلت طوال عمرها تعتني به وتغذيه ، كانت تكومه – ذلك الكستنائي – في يدها مثل كنز وتتحسسه بينما تنفجر فـــي مـــرآة مكتـــب الرجل أشعته اللامعة كشمس متقدة ، في الوقت الذي يكون هـــو – الرجل الكبير – قد شبع وارتوى تكون قد كورته ووضعته في جرابه و ابتســـمت و هي تغادر المكتب الفخـــم إلـــى مكانهـــا الضئيل .

ما فائدة الغناء الآن ؟

ستظل تلك المرأة تردد السؤال وهي تركض في شوارع المدينة الصغيرة – مدينتنا الصغيرة – فاردة ذلك الكســـتنائي الخشـــن الطويل – و قد لوثته الأتربة و الندى – فوق ظهرها العاري ، ستظل تركض و تركض ، و تركض . ربما تجد إجابة.

ما أظنه عن الديوك.

إثم أول :

الديك له عرف جميل ، الديك يتجول في الحوش الكائن بفضاء سوق الشيوخ والتي تنطق " سوج الشيوخ " بحرية مطلقة ، بحزم ، بخيلاء ، الديك يتجول في الضواحي بشراسة ، لأنه قد تمكن وبخبث تاريخي لا مثيل له من إزاحة كل المنافسين ، في حركة خاطفة ، و ذكية ، الديك الآن هو المسيطر ، الأب ، العائل ، يفرد جناحيه فوق الجميع ، هو قد استعار من الثعلب عينيه ، و من الإوزة أمومتها ، ومن النسر قوة انقضاضه ، و من الهدهد بلاغته ، أليس هو الذي كلم سليمان النبي ، و بالمناسبة الديك شعر أنه لا شريك له ، فأصدر أوامره بأن تؤذن كل الديوك باسمه وأن تصلي له كافة الدجاجات في طابورها الأسبوعي الذي كانوا يسمونه طابور الوطء ، حيث يقفن كلهن في يوم محدد من كل أسبوع ، في طابور طويل ، من أول الحوش إلى آخره ، كلهن يقفن ، جميعهن ، مثل طفلات جميلات يقفن في طابور التلقيح ضد شلل الأطفال ، أو كزهرات باسقات في بستان كبير يتلقفن رشاش ماء البستاني الأوحد ، في البداية شعرن بالخوف و الدهشة ، ثم انتهى الأمر بتلقفهن نطفته المقدسة في تلذذ ، وهن يرددن الأهازيج ، الأهازيج المنتقاة من مقاماتهن الموغلة في الحزن الأبدي، مواويلهن الجنوبية المشحونة بالشجن ، والزهرات الشهيدات يتساقطن ، يتساقطن فوق حواف الترع ، على شواطئ

النهرين ، و في البراري ، ثم حدث بعد أن تيقن الديك ذو العرف الجميل بأنه لا شريك له ، أن تصدع الكون ، زلزلت الأرض وأمطرت السماء نارا ، حتى كادت سوج الشيوخ أن تختفي ، وانكسر العرف الجميل للديك ، لكنه – و يا للغرابة – ظل يحرص حرصا شديدا على أن يستمر الطابور .. طابور الوطء.

إثم ثان :

المرأة التي في الصيدلية همست لي بعد أن ألصقت وجهها الدميم بوجهي : عايز هرمونات ؟ .. تخليك كده. ثم أطبقت أصابع يدها الطويلة عدا إصبعها الكبير مشيرة إلى ما تفعله الهرمونات . فقلت لها و في همس أيضا : نعم .. بشرط أن نجربها معا . فطارت العصافير التي كانت مرسومة فوق صدغي و حطت فوق صدرها .

الشارع الكبير في المدينة الصغيرة ، سأعبر الشارع وأجد في مواجهتي " قصر الثقافة "

من المفترض أن أتحدث عن الكاتب يوسف إدريس اليوم . كنت قد لاحظت – في برنامج تليفزيوني قديم – أنه يشبه إلى حد كبير الديك ذا العرف الجميل لكني نويت أن أتحدث عن الدروب المقفلة التي صنعها. عالمه الجاهز المغلق الذي يفاجؤك به . قلت : شيد إدوار الخراط حيطانه العالية المذهلة في الأربعينات من القرن العشرين ، وقد آثرت عدم قول ذلك عندما رأيتهم : يتدثرون بالشيلان الغامقة و الطواقي الصوفية ، الأحجار الضخمة الصلبة رابضة فوق صدورهم ، و الحبال الثخينة تلتف حول أعناقهم .

قلت : هذا تنافر واضح بين المكان و الزمان ، و كنت أنظر إلى قيشاني القصر الجميل و الباركيه اللامع تحت أقدامهم فخرجت . الشارع الكبير في المدينة الصغيرة ، إذن من الأفضل أن أعبر الشارع لأجد الصيدلية في مواجهتي.

إثم ثالث :

المرأة التي تقطن شقته ، زوجته طبعا ، دأبت على الصراخ منذ صباح السبت ، الأولاد لا يذاكرون دروسهم ، في البيت أشــياء كثيرة خربانة ولا بد من إصلاحها ، أمبوبة البوتاجــاز فارغــة وشطافة الحمام بايظة ، متى تنزل من عالمك السماوي يا ديــك البرابر وتعيش معنا ؟ هكذا تظل تصرخ طوال نهار الســبت ، كذلك أيام الأحد والاثنين و الثلاثاء والأربعاء ، و فـــي صــباح الخميس تهدأ قليلا ، و تبدو طوال فترة النهار مثل قطة تتمســح بجسده ، و في الليل عندما ينام الأولاد كانت قد هيئت له ، وكان قد هم بها لكنه كان قد كف طوال أيام الأسبوع عن أن يهم .

عبد الحميد البسيوني

* أصدر عام ١٩٧٩ مجموعة (أصوات في الليل) عـــن دار الثقافة الجديدة بالقاهرة .

* أصدر عام ١٩٩٥ مجموعة (أخطاء صغيرة) مـــن فـــرع ثقافة الإسماعيلية .

أعيد طباعتها عام ٢٠٠٤ من الهيئة العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)

انطلقت المحروسة فى حوارها مع الجماعات الأدبية الجديدة من يقينها المطلق بأن التنوع فضيلة يجب الحرص عليها ، وأن تلك الجماعات ليست نسخاً متشابهة ، فلكل منها توجهاتها ومنطلقاتها الفكرية وانحيازاتها الفنية . وبوضوح أكثر فأن المحروسة ليست حريصة على الحوار مع كل الجماعات الأدبية فقط ، بل حريصة أيضاً على عدم التدخل فى توجهات ومنطلقات الجماعات المختلفة ، وحريصة على دعم هذا التنوع وتعتبره ـ مرة أخرى ـ فضيلة ، شأنه شأن الاستقلال لكل جماعة .

محمود الوردانى

اللوحة والغلاف للفنان/ مجاهد العزب

المحروسة
إضافة